القسم الثانى

المعتقدات

ـ ١٢ ـ

التحنيط

فى عصور ما قبل الأسرات، كان الموتى يوسدون فى حفرة غير عميقة. ويوضع الجثمان على جانبه الأيسر فى وضع الانحناء. كما يوضع معه بضع أغراض مفيدة؛ مثل جرار فخارية مملوءة بالطعام والشراب. وتلف رأس المتوفى باتجاه الغرب حيث مدينة الموتى والشمس الغاربة. وكان يعتقد أن هذا الوضع يفضى إلى البعث والعودة للحياة. وغالبا ما كان الجثمان يلف فى دثار من الحصير أو جلود الحيوانات، وفى سلال بحجم الإنسان فيما بعد. أما أولئك الموسرين، فكانوا يدفنون فى توابيت خشبية، ويمدون بكل ما يلزمهم فى الحياة الأخرى.

وخلال عصر الأسرة الأولى. كان المتوفى يودع فى مأوى للأرواح، أو حجرة دفن تسمى «مصطبة». ويمكن ترجمة هذه الكلمة إلى «منصة» بالعربية الحديثة، وتشبه المصاطب المنصات المنخفضة الموجودة خارج بيوت المصريين الحديثة(*). وكانت المصاطب منخفضة ومستطيلة الشكل، تعلوها قاعدة من قوالب الطين اللبن أو القرميد مطلية باللون الأبيض، لتحمى الجثمان والأغراض المدفونة معه لاستخدامها فى الحياة الأخرى. وشكلت المصاطب قاعدة أساس الأهرامات فى الأسرتين الثالثة والرابعة.

وخلال عصور ما قبل الأسرات، كانت الجثث تدفن فى الرمال، وتبين أن الجسد يمكن حفظه طبيعيا، نتيجة للمناخ الجاف غير العادى. وبناء على هذه الفكرة، أصبح التحنيط عرفا سائدا خلال عصر الأسرة الثانية (رغم وجود دلائل على التحنيط قبل

(*) يعرف عامة المصريين لفظ «المصطبة» ويستعملونها حتى الآن خصوصا فى القرى، أو بعض المناطق الشعبية فى المدن، للدلالة على مكان للجلوس يبنى من الطوب اللبن ـ المترجمة.

ذلك). وعثر على عدة جثث لفت رؤوسها وأذرعها وأيديها بلفائف من الكتان، مدفونة تحت حصر؛ ترجع إلى نحو ٣٥٠٠ قبل الميلاد. واعتقد المصريون القدماء أن الروح يمكنها العيش فى خلود، طالما ظل الجسد سالما، ومن ثم كان من الضرورى حفظ الجسد، وحمايته من الضرر والتآكل.

مع كل الاحترام الواجب

وأمام أسرة المتوفى ثلاثة خيارات وفقا لقدرتها المالية. فيتطلب الخيار الاقتصادى يوما واحدا أو اثنين لاستكمال طقوس الدفن. ويستغرق الخيار المتوسط ٣٠ يوما ـ حيث تكلف عملية تحنيط المتوفى وصنع القناع الجنائزى؛ ما يساوى راتب عمل المواطن العادى فى أربعة شهور. بينما يستغرق البرنامج الفاخر للدفن ٧٠ يوما. وتؤدى خلال هذه الفترة أعمالا أكثر من مجرد التحنيط. فيتعين إعداد التابوت (الذى كان ينحت من الحجر فى عصر الدولة الوسطى) والمقبرة، بإتقان لاستقبال الجثمان. وقد نشأت لفظة التابوت باللغة الانجليزية «sarcophagus» عن اللفظتين اليونانيتين «sark» بمعنى اللحم، و«phagus» بمعنى يأكل. فكان الإغريق يرون فى التوابيت ـ التى تحوى أجساد الراحلين ـ صناديق «تأكل اللحم». واعتبر إعداد مواد الدفن عملا مهما للفنانين، والصناع، والنجارين، فضلا عن بنائى المقابر. كما ينهمك الكهنة والكتبة فى إعداد النصوص الجنائزية لتوضع مع المتوفى.

وتبدأ العملية التى تستغرق ٧٠ يوما، ولا يقدر عليها إلا أولئك الذين يعتلون قمة السلم المالى، بتنظيف الجسد. وتذاب مادة الدماغ أولا بحقن سائل مذيب فى تجويف الدماغ، ثم ينزع الدماغ، بإدخال أداة لاقطة عبر إحدى فتحتى الأنف. وتوجد دلائل على أن الدماغ كان يزال أحيانا من ثقب يحدث فى قاع الجمجمة. واعتبر هذا العضو مادة مهملة، يؤدى إلى الرطوبة والتحلل. ومن ثم، يتخلص منه، ثم يملأ تجويف الدماغ بالراتنج. وبعد ذلك، تنزع الأحشاء الداخلية، المعرضة للتحلل السريع. ويحدث شق بالبطن ناحية الجانب الأيسر من الجسد بسكين حادة من حجر الصوان أو الزجاج البركانى الجرانيتى من إثيوبيا.

وينزع الكبد، والمعدة، والأمعاء، وتوضع منفردة فيما أطلق عليه الإغريق الجرار «الكانوبية». ويشير أحد الآراء إلى أن هذه التسمية اشتقت من قرية «كانوبس»

(أبو قير) الواقعة فى دلتا النيل قرب الإسكندرية. ففى هذه القرية، كانوا يقدسون الجرار ذات الغطاء على هيئة رأس بشرية خلال العصور الفرعونية المتأخرة(*) باعتبارها تجسيدا لأوزيريس. بينما تعتبر الرواية اليونانية أن هذه الجرار سميت نسبة لكانوبس قائد أسطول الملك الاسبرطى «مينلاوس» فى الإسكندرية، الذى بدأ حرب طروادة. ومات «كانوبس» فى مصر، وأطلق الاسم بعده على مدينة. وبعد ذلك قدست الأوعية «الكانوبية» فى منطقة الدلتا خلال العصر الفرعونى المتأخر(*)، فى هيئة جرة بغطاء على هيئة رأس بشرية؛ وصنعت من الطمى، أو الخشب، أو المرمر، أو الحجر الجيرى أو الخزف. وينقش عليها تعاويذ يعتقد أنها تعيد لم شمل الجسد مع أعضائه فى الحياة الأخرى بطريقة سحرية.

وعثر بين كنوز توت عنخ آمون على مجسم لمقبرة يعمل كخزانة كانوبية، ويحتوى على أربعة أجزاء أسطوانية، منحوتة من كتلة مرمر واحدة. ونحتت الربات الحارسات الأربع «أوزيريس» و «نبت ـ حت» و «سلكت» و «نيت» فى كل ركن من الأركان لحراسة أحشاء الملك المحنطة.

وصمم كل وعاء «كانوبى» بغطاء أو سدادة على هيئة رأس واحد من «ميسو حيرو» الأربعة، أى أبناء حورس الأربعة: فمثل «إمست» برأس بشرى يحمل الكبد، و «حعبى» برأسه الذى يشبه القرد لحماية الرئتين، و «كيب سنوف» ذى رأس النسر لحراسة الأمعاء، و «دوا موتف» الإله ذى رأس ابن آوى، لحفظ المعدة. وتحمى أبناء حورس، بدورهم ربات الحماية الأربع.

وبحلول عصر الأسرة الثانية والعشرين، أصبحت الأوعية «الكانوبية» رمزية تماما، حيث كانت الأحشاء تنزع، وتلف بالكتان، ثم يعاد وضعها داخل تجويف الجسد. وعادة ما يترك القلب، أو «بذرة العقل» أو «مصدر الحياة» كما كان يطلق عليه، داخل الجسد. حيث أن القلب هو الذى يتحدث باسم المتوفى فى قاعة الدينونة.

وتتمثل الخطوة التالية فى إزالة الرطوبة عن الجسد. فتوضع كتل من ملح النطرون ملفوفة بالكتان داخل تجاويف الجسد، والمزيد من كتل النطرون، ومسحوقه، حول الجسد. وعمل هذا «الملح المقدس» كما أطلقوا عليه، كعامل تجفيف فعال. واعتبر

(*) يشير إلى الفترة من عصر الأسرة السادسة والعشرين إلى الحادية والثلاثين وتنتهى بقدوم الإسكندر غازيا لمصر ـ المترجمة.

النطرون مانعا للتعفن، نظرا لكونه مطهرا طبيعيا. وبعد أربعين يوما فى هذا الحمام من النطرون، يصبح الجسد هيكلا مجففا، غير قابل للرطوبة أو التحلل. وملح النطرون هو كربونات صوديوم، تنشأ طبيعيا فى بحيرات ملحية مع رواسب أخرى.

وعندما تصبح الجثة مجففة، تزال كتل ملح النطرون، ويغسل الجسد بنبيذ النخل، أو مياه النيل الشافية والمقدسة. وبعد ذلك، يعالج بزيوت خاصة وراتنجات معطرة مثل المر والقرفة الصينية. وتحشى هذه الراتنجات أيضا فى تجاويف الجسد، مع نشارة الخشب، مع حشوات من الكتان المغموس فى الراتنجات والزيوت، بهدف الحفاظ على شكل الجسم.

وما أن ينتهى العمل فى الجسد، حتى تبدأ عملية لفه. وتستخدم مئات الياردات من قماش الكتان، وبينما يلف الجسد، يتلو الكهنة تعاويذ وصلوات. وتستغرق عملية لف الجسد نحو ١٤ يوما، حيث يلف كل إصبع على حدة من أصابع اليدين والقدمين فى طبقات من قماش الكتان الأبيض المغلف بالمومياء (التعبير الفارسى/ العربى الذى يعنى القار أو القطران) قبل أن يتم لف اليد أو القدم كلها. وجاء لفظ «mummy» من مومياء، وهو راتنج أسود لاصق يستخدم فى لف المومياوات. وعثر على «المومياء» فى الشرق الأقصى وكانوا يظنون أنه يحوز قوى علاجية خاصة.

وكانت مومياء الفراعنة توضع بحيث تتقاطع اليدان فوق الصدر، كدلالة على الملكية. أما التمائم؛ مثل «عين حورس»، أو «حزام أوزيريس»، أو «الجعران» (الخنفساء المقدسة) فتدس بين الأربطة فى أماكن محددة بعينها. فالجعران، وهو تميمة ذات تأثير، يوضع فوق قلب المومياء، مع نقش تعويذة عليه لمنع القلب من توريط صاحبه أو خيانته، على نحو رمزى. وأحيانا ما تنقش أدعية أو تعويذات على لفائف الكتان نفسها، فضلا عن أنه غالبا ما يوضع بدلا من القلب بالكامل تميمة على هيئة جعران كبير، لتيسير عملية البعث. وكانت تميمة القلب الجعران تصنع من اللازورد، أو العقيق الأحمر، أو أحجار أخرى شبه كريمة. ومن بين كنوز «توت عنخ آمون»، عثر على ما يزيد عن ١٤٠ تميمة داخل أربطة مومياء توت عنخ آمون، الملفوفة فى ١٣ طبقة من أفخر أنواع الكتان.

وعند هذه المرحلة يطلى اختصاصى فى التجميل الوجه، مضيفا لونا للشفتين، والعينين، والخدين، والأظافر، والكفين و باطن القدمين. وغالبا ما توضع عينان

مقلدتان فى محجرى العينين، إذا كانت أسرة المتوفى قادرة على تحمل هذا التبذير. وبالنسبة لمن يستطيعون تحمل المزيد من النفقات، يضاف قناع جنائزى وشعر مستعار لمساعدة الروح على التعرف بسهولة على الجسد الذى تنتمى إليه.

ثم توضع المومياء بعد تكفينها فى تابوت مزدوج الغطاء من خشب الأرز أو غيره من الأخشاب الفاخرة. وتحمى الطبقة الخارجية التابوت الأول والجسد. وتزخرف طبقتا التابوت الخشبيتين بمشاهد من حياة المتوفى وأعماله، فيما يمثل سيرة حياة مصورة. وأخيرا يوضع الجسد والتابوت المزدوج داخل التابوت الحجرى، مكان الراحة الأبدية للجسد. وترسم عينان على الوجه الخارجى للتابوت الحجرى، حتى يستطيع المتوفى أن يطل منهما. وعندما تكتمل العملية كلها، ينقل الكهنة، والأقارب، والأصدقاء والندابات التابوت إلى موضع الدفن.

وزينت جدران المقابر بمشاهد لأسرة المتوفى، فضلا عن الأنشطة التى كان يمارسها أثناء حياته (أو حياتها)، ويتطلع إليها فى الحياة التالية. وداخل المقبرة، يحفظ الجسد المادى، ويصان، ويحاط بأغراض لاستخدامها فى الحياة الأخرى؛ وهى نفس الأغراض المطلوبة للحياة على الأرض. ومن بين الأشياء التى يتعين أن يأخذها المرء إلى مقبرته، الملابس، و الشعر المستعار، وأدوات الحرف، والأسلحة، وأدوات الكتابة، والألعاب، والحلى، والأطعمة من أجل «كا» أو القرين. وغالبا ما تستخدم نماذج مصغرة، مثل نموذج لقارب، حيث تأخذ مساحة أقل، وتكلفة صناعتها أقل، بينما تؤدى رمزيا الغرض منها، مثلها مثل الأغراض الأصلية.

ويمد المتوفى أيضا بمستحضرات التجميل، والعطور، والزيوت، والجرار، والخزائن، والأوانى، والكتان، والأثاث، والحيوانات الأليفة، والخدم فى صورة «أوشابتى»، أو «شاوابتى». وكانت «أوسپ» هى الكلمة المصرية التى تعنى «يجيب»، أما «أوشابتى» أو المجيبون، فهم تماثيل صغيرة أو نماذج لخدم، ذكورا وإناثا، منحوتة من الحجر، أو الخشب، أو المعدن، أو الخزف، ظهرت للمرة الأولى خلال عصر الدولة الحديثة. والغرض من هؤلاء «الأوشابتى» هو أداء الأعمال، والمهمات التى يكلف الآلهة بها المتوفى؛ ومن ثم يتعين أن يدفن الميت مع جميع «الأوشابتى» التى يتوقع أن يحتاجها لأداء المهمات الكونية التى قد تطلبها الآلهة مقابل توفير الحماية والخلود للمتوفى. وفى المعتاد، يحتاج الشخص الثرى ٣٦٥ «أوشابتى»، بمعدل واحد لكل يوم من أيام السنة، بالإضافة إلى ٣٦ مشرفا (واحد لكل مجموعة مكونة من عشرة

أشخاص). ودفن الملك «توت عنخ آمون» مع ٤١٣ «أوشابتى» مصنوعة من الخشب، والحجر الجيرى، والمرمر. وعثر فى مقبرة «سيتى الأول» على ما لا يقل عن ٧٠٠ «أوشابتى» منقوش عليها الفصل السادس من «كتاب الموتى». وغالبا ما كانت تنقش تعويذة على ظهر كل تمثال من تماثيل «الأوشابتى»، ويفترض أن تتلى هذه التعويذة لتنشيط الخادم. وغالبا ما ينقش على التماثيل اسم المتوفى.

بلا أى احترام على الإطلاق!

فى العصر الحديث، انتشرت عمليات «انتهاك المومياوات». وبحلول القرن الحادى عشر الميلادى، كانت المومياوات المصرية تطحن لتتحول إلى مسحوق، وتباع باسم «خلاصة المومياء» على أنها منشط جنسى ودواء. ووصف الطبيب الفارسى العظيم «ابن سينا» «المومياء» تقريبا لعلاج جميع الأمراض. وبحلول القرن السادس عشر الميلادى، اشتد الطلب على «خلاصة المومياء»، وبيعت فى صيدليات بمختلف أنحاء أوروبا خلال القرن السابع عشر.

ومن الطب إلى الترفيه؛ ففى أوائل القرن التاسع عشر، أصبح من الشائع إقامة حفلات العشاء فى أوروبا، حيث يسرى عن الضيوف بفك الأربطة عن مومياوات مصرية أصلية. وفى وقت لاحق من القرن التاسع عشر، كان العرب يبيعون مسحوق المومياء مخلوطا بالزبد كمرهم لعلاج الإصابات.

ولعل أشد أنواع الانتهاكات على الإطلاق، ما حدث خلال الحرب الأهلية الأمريكية، حيث تبنى صانع ورق اسمه «إيزاك أوجستس ستانوود» فكرة مروعة تتمثل فى استيراد مومياوات مصرية لمواجهة النقص الحاد فى الأسمال المطلوبة لصناعة الورق. فاستورد كميات ضخمة من المومياوات من أجل أربطتها من الكتان؛ التى تنزع عنها ثم تحول إلى لباب. وسرعان ما أصبح الأمريكيون يتوقعون لف ما يشترونه من لحم فى أوراق بنية اللون - مثلما هو الأمر حاليا فى العديد من محلات الجزارة. وكلفت هذه العملية «ستانوود» أقل من نصف ثمن شراء الأسمال فى أمريكا.

غير أنه اضطر للتوقف عن هذا الأمر عندما تفشت الكوليرا، لتحصد أرواح العديد من العاملين فى مصانع الورق التى يملكها - فهل هى لعنة إقلاق المعبودات المصرية؟

ـ ١٣ ـ

الموت والخلود

ذكرت كتابات كثيرة أنه ما من حضارة تعلقت بالحياة مثلما فعل المصريون، ولم يحدث أن كرس غيرهم ـ خلال أى فترة من فترات التاريخ ـ مثلما كرسوه من وقت استعدادا للموت. فقد اعتبروا الحياة رحلة واستعدادا للموت، وما بعده. وكانت الحياة عزيزة على المصريين حتى أنهم أولوا اهتماما كبيرا لتمديدها عبر الأبدية. واعتبر جميع المصريون القدماء الحياة الأخرى استمرارا، وصورة مثالية لوجودهم المؤقت على الأرض.

ومنذ وفاة «أوزير» (أوزيريس) فى موت فان، وعودته للحياة كإله، ساد الإيمان بأن عبادة الشمس، من شأنها أن توفر مدخلا لحياة أبدية. وكان شروق وغروب الشمس والنجوم رمزا للبعث والحياة الأخرى. ومن ثم، كان المتوفى ينقل إلى الضفة الغربية للنيل، موقع الجبانات فى مملكة الموتى، حيث تغرب الشمس، أو تموت. ويسكن الأحياء الضفة الشرقية، حيث تشرق الشمس. واعتبر الأفق الغربى الحد بين العالم السفلى للموتى، وأرض الأحياء. وأطلق المصريون القدماء على الجبانات «خيرت ـ نتر» التى تترجم إلى «ما تحت الإله»، وكان يشار إلى الموت باعتباره «الذهاب غربا».

وبحلول عصر الدولة الحديثة، كان الانتماء للأسرة الملكية شرطا للاستقرار فى مقابر ملكية نحتت بعمق فى الصخور الصلبة لمدينة الموتى الملكية على الضفة الغربية من النيل عند أواست، فى وادى الملوك. واستخدم وادى الملوك، كمكان لدفن أفراد الأسر الملكية لما يزيد عن ٥٠٠ عام. وبالقرب منه ، اكتشفت أكثر من ٨٠ مقبرة فى وادى الملكات، بما فى ذلك المقبرة الفخمة للملكة «نفرتيتى» من الأسرة التاسعة عشرة.

وعندما يموت أحد النبلاء، تستأجر ندابات محترفات، وهن نسوة من طبقة اجتماعية متدنية يطلق عليهن «النائحات»، للقيام بطقوس الجنازة، فيندبن ويصرخن فى أنحاء القرى، ووجوههن ملطخة بالتراب، وتضرب الواحدة منهن صدرها بيد بينما تشد شعرها وملابسها باليد الأخرى. وينتقل موكب جنائزى مكون من أقارب المتوفى، وأصدقائه، وخدمه، ويتصدرهم الكهنة؛ إلى موقع المقبرة على الضفة الغربية من النيل. وتحمل بعض الندابات زهورا، وأطعمة، وزيوتا، بينما تحمل أخريات ملابس وأمتعة لتركها داخل المقبرة.

وفى مقبرة «حور محب» صورة تمثل موكبا جنائزيا، ولوحة أخرى تظهر نائحات رسمن باللون الأحمر اللامع، وبخطوط رشيقة ولينة ومرنة ـ وربما كان ذلك ما دعا بعض علماء المصريات إلى الربط بين هذا اللون والحداد. وتظهر فى مقبرة «راموس»، الوزير وحاكم «أواست» الذى عاش خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة، مجموعة أخرى من النساء والفتيات النائحات يرفعن أذرعهن فى ضراعة «دعاء» فضلا عن الوضع التقليدى للنواح (أطلقوا عليه «لاكبيت»). وفى مقبرة «أيبوكى» و«نيب آمون» لوحة تصور إحدى النائحات، كما صورت عدة نائحات فى مقبرة «أوزير حت». وتجتمع النائحات مرتين يوميا لإنشاد أناشيد جنائزية تكريما للمتوفى على رؤوس الأشهاد.

أما راقصو «موو»، فهم مجموعات من الرجال المحترفين، الذين ينتظرون فى موقع المقبرة لتحية الموكب الجنائزى عند وصوله. ويؤدى الرجال ـ أزواجا ـ رقصات شعائرية إيقاعية. ويهدف الرقص إلى استحضار «پى» وهى أرواح «پو» كل من «حورس» و«حعپى» و«إمست»وغالبا ما يرتدى راقصو «موو»أغطية للرأس من سيقان نبات البردى أو قلنسوات مرتفعة مخروطية الشكل. ويرافق الراقصين موسيقيون، كما تنشد أنا شيد جنائزية.

وعند وفاة فرعون، تقام فترة حداد مدتها ٧٠ يوما، بينما يجرى لجثمانه المعالجات والطقوس اللازمة. وترتل الترانيم التى تهدى لذكراه، بينما تغلق أبواب المعابد، وتحظر القرابين، والولائم، والاحتفالات تماما خلال فترة الحداد.

ويحتفل برحيل الشخص المحبوب إلى العالم الآخر، مثلما يحتفل بالزواج أو أى مناسبة أخرى من مناسبات الحياة الفانية. فبعد الجنازة، تقام الولائم على شرف الراحل العزيز عادة عند موقع المقبرة وبعد انتهاء الموكب والاحتفالات وإغلاق المقبرة للأبد؛

يدعى الضيوف لاحتساء النبيذ حتى يصلون إلى السكر الذى يبلغهم حالة من النشوة تجعلهم على اتصال بالفقيد. ويؤدى ذلك بأقصى قدر من الاحترام للمتوفى، وعلى نحو بالغ الجدية. وتترك الأدعية وقرابين الطعام عند موقع المقبرة. وغالبا ما يقص أفراد الأسرة خصلات من شعرهم رمزا للحداد.

وأشد ما كان يخشاه المصرى، هو أن يموت خارج وطنه الحبيب أو «تا ميرى». فإذا لم يتسن إعادة الجثة إلى مصر، ولم يتح حفظ الجسد، لن يضمن لنفسه الخلود.

أمران أحلاهما مر!

من بين أشهر القصص فى مصر القديمة، واحدة بعنوان «مغامرات سنوهى». والقصة حدثت خلال عصر الأسرة الثانية عشرة، فى عهد «أمنمحات الأول» وتعكس خوف المصرى من الموت فى أرض غريبة.

حيث كان الفرعون مهددا دائما من أولئك الذين يأملون فى إزاحته حتى يستولون على العرش لأنفسهم. وسمع «أمنمحات الأول» شائعات عن مؤامرة بين حريمه تتهدد حياته. وخشية على مستقبل مصر، بدأ الإعداد لتسمية ابنه «سنوسرت» باعتباره الوريث الحقيقى و الشرعى.

ونما إلى علم «سنوهى»، وهو أحد المسئولين ومن أخلص رفاق «سنوسرت»، نبأ الإعداد لمؤامرة لقتل الفرعون. وخوفا على حياته، من كل من الطرفين - سواء حاول تحذير الفرعون، أو أصبح متورطا فى هذه المؤامرة البشعة - ولعدم رغبته أن يشهد افتضاح المؤامرة، هرب «سنوهى» إلى بلاد «رتنو» (فلسطين). وهناك لقى ترحيبا من الملك الذى عينه قائدا للجيش. وتزوج ابنة الملك الكبرى وعاش فى رغد.

ودافع «سنوهى» عن «رتنو» ضد أعدائها من البلاد والقبائل المجاورة. وخدم الملك على أتم وجه سنوات عديدة، مما أكسبه ثقته وعطفه. ولما كان الملك لم ينجب ذكورا، انتقلت الخلافة بالطبع إلى «سنوهى». وعندما توفى الملك، أصبح «سنوهى» حاكم «رتنو». ولكن مع مرور الوقت، اشتاق «سنوهى» إلى وطنه. فأرسل رسائل إلى «سنوسرت»، متوسلا إليه أن يغفر له تركه مصر منذ سنوات، وملتمسا عفوا ملكيا يتيح له العودة إلى مصر. وسرعان ما استجاب «سنوسرت» ورحب بعودته إلى مصر.

ومكافأة على إخلاصه مدة طويلة فى خدمة «أمنمحات الأول» والد سنوسرت، حصل «سنوهى» على وعد بجنازة فخمة ولائقة غرب «أواست» عندما يحين أجله.

وترك «سنوهى» بلاد «رتنو» فى رعاية ابنه الكبير وخليفته، وعاد إلى مصر. وصار مشرفا على بلاط الفرعون خلال السنوات القليلة الباقية من عمره. وقبل وفاته، دون جميع المغامرات التى خاضها قبل عودته إلى مصر؛ ويعتقد أن هذه المغامرات هى أساس مجموعة قصص «سندباد» الشهيرة.

أريد أن أحيا إلى الأبد

تركز الهدف النهائى للمصريين، من أفقر الفلاحين حتى أغنى الملوك، فى الخلود. وكان هذا الامتياز فى الأصل قاصرا على الملك فى بداية الدولة القديمة، غير أنه مع حلول الدول الحديثة، أصبح لجميع الطبقات الاجتماعية فرصة الحصول على حياة أبدية. وينبغى على الراحل أن يمر بالعديد من الاختبارات، والتجارب لاستكمال رحلة محفوفة بالمخاطر عبر العالم السفلى، المعروف باسم مملكة «دوات» التى يحكمها «أوزيريس». وبحلول العصر البطلمى، أعتبرت «دوات» موضع عقاب أولئك الملوثين بالخطيئة.

على من سيقيم مع الآلهة بعد الموت أن يواجه العديد من الأرواح الحارسة، والعراقيل، والاختبارات، والمفاجآت غير السارة وأن يتغلب عليها. وهناك نصوص مقدسة تهدف لإرشاد المتوفى عبر «دوات»؛ حيث يحوى «كتاب الموتى» جميع التعاويذ اللازمة، والأدعية، والشعائر، والمعرفة المطلوبة لمواجهة هذه المخاطر بنجاح. وكان لجميع المصريين فرصة الحصول على الخلود، مع توفر الأموال الكافية للجنازة والدفن، ونسخة من نصوص الموتى. رغم أن مسلكهم خلال الحياة الحالية هو الذى يحدد ظروف الحياة التالية.

وكان يعتقد أن «دوات» تقع تحت الأرض، حيث تقيم العديد من الأرواح، وتتلاقى، ومن المفترض أن تمر الشمس عبر «دوات» فى رحلتها اليومية من الغرب إلى الشرق. ومثلما عاش الملك والشخص العادى فى عالمين منعزلين أحدهما عن الآخر على الأرض، كانا كذلك فى الحياة الأخرى. فالفرعون المتوفى، باعتباره كائنا مقدسا،

يصل إلى العالم الآخر عبر رحلة سماوية على مركب الشمس «ويا» تمثله الجوزاء «ساه»، فيما يرمز لأوزير «أوزيريس» فى هيئته الفلكية والدورة العظمى للبعث. ويسافر الفرعون الراحل عبر «دوات» لينضم إلى نظيره الإلهى فى «آمنيتى» (أرض الموتى) التى يحكمها أيضا «أوزير». (وكان المتصور أن أمنيتى تقع على الشاطئ الغربى للنيل). أما جميع الموتى من غير الملوك، فيبقون مرتبطين بالأرض، ويخضعون لمحاكمات شاقة ورحلة محفوفة بالمخاطر عبر «دوات».

وفى العالم السفلى، يسأل المتوفى أسئلة، ينبغى أن يكون تعلم الإجابة الصحيحة عليها من النصوص المقدسة أثناء حياته؛ حيث كان من الممكن شراء النصوص مقدما من الكهنة الكتبة. ومن المفترض أن لدى معظم ملتمسى الخلود فكرة جيدة عما يجب أن يقولونه أمام قاعة المحكمة، حتى أنه ليس من المحتمل أن يكونوا قصروا فى استذكار هذه التعاويذ بالغة الأهمية، عندما كانت لديهم الفرصة.

ومع ذلك، هناك الكثير مما يتعين بحثه، فخلال عصر الدولة القديمة، كان يمكن العثور على الأجوبة فى متون الأهرامات، المنقوشة على الجدران الداخلية لحجرات الدفن الملكية. وتتكون النصوص مما يزيد عن ١٥٠ من الترانيم، والخرائط، والتعويذات السحرية، وأدعية الحماية والإرشاد إلى (وعبر) مناطق الخطر فى مملكة «دوات». وتعتبر الحجرة الداخلية من هرم الفرعون «أوناس» من الأسرة الخامسة بسقارة، أول جدران عرضت عليها متون الأهرامات. وبحلول عصر الدولة الوسطى، كانت النصوص تعرف باسم النصوص التابوتية، حيث تسجل داخل التابوت الحجرى. وفى عصر الدولة الحديثة، صارت هذه الإرشادات الجنائزية تكتب على لفائف من البردى، وتوضع داخل التابوت الحجرى مع الجسد. وأطلق المصريون على هذه النصوص «پرت إم حرو» (التى ترجمت إلى «كتاب اليوم الوشيك القدوم»)، ونحن نعرفها بالعنوان الذى أطلقه العرب عليها «كتاب الموتى».

وبعبور البوابات الاثنتى عشرة الخاصة بساعات الليل الاثنتى عشرة، تصل روح المتوفى إلى محكمة «أوزيريس». وما أن يدخل قاعة «ماعت»، حتى يقوم «أنپو» (أنوبيس) - حارس الموتى - بوزن قلبه (أو «آب» فى هيئته الروحية). والقلب يرمز للتفكير والشعور، حيث تتسارع دقات القلب مع اشتداد قوة العواطف. كما اعتبر القلب مصدر الحياة وجميع الأفكار النقية والشريرة. ويوضع القلب على ميزان

العدالة، مقابل ريشة «ماعت»، التى تجسد مفهوم الحقيقة والاستقامة. ويعتبر ميزان «ماعت» أصل الميزان الذى يستخدم حاليا كرمز للعدالة، وللعلامة الفلكية لبرج الميزان.

ويسجل «تحوت»، إله الحكمة وكاتب الآلهة، النتائج. فإذا كان القلب نقيا من الخطايا، وبريئا من الآثام، يتوازن مع الريشة. ومن ثم، يلتحق المتوفى بأوزير فى «أمنيتى». أما إذا كان القلب ثقيلا بالذنب، وأمال كفة الميزان، فإن «مفترس الأرواح»، المسمى «أمنيت» (أو «ببى» فى روايات أخرى) يقف على أهبة الاستعداد متلهفا، ومنتظرا الفرصة لالتهام القلب. وما أن يلتهم القلب، حتى يفقد المتوفى كل فرص الخلود. فالتهام «أمنيت» قلب الميت يعادل الموت للمرة الثانى والأخيرة. وهذا الوحش الأسطورى ذو الشهية النهمة، له فك تمساح، ويشبه الجزء الأمامى من جسده مقدمة جسد أسد، والجزء الخلفى يشبه خلفية جسد فرس النهر، والثلاثة من أكثر الحيوانات إثارة للخوف.

أما إذا اجتاز المتوفى الاختبار، فإن «تحوت» يعلن المتوفى «ماعت حيرو» بمعنى «صادق الصوت». ويؤدى«أنپو» (أو الكاهن الجنائزى المرتدى قناعه، والذى يعمل نائبا عنه) عند مدخل المقبرة، وبعد انتهاء الموكب الجنائزى، «احتفال فتح الفم» الأخير والأكثر أهمية. وكان ذلك يجرى باستخدام أداة معدنية تدعى «آدز»، فلمسة خفيفة من «آدز» على جفنى وشفتى المتوفى، تعيد الشعور والحياة إليه، . ويتبع هذا الطقس، طقسا آخر ، على نفس النحو، باستخدام أداة تسمى «پش-إن-كف»، ويهدف إلى تمكين المتوفى من تناول الغذاء بعدما استعاد حواسه. فقد أصبح الآن قادرا-روحيا- على أن يقيم فى «أمنيتى» بين أرواح الراحلين والآلهة فى السماء.

وآمن المصريون القدماء أن المتوفى (الذى أطلق عليه «خات» فى صورته المحنطة) عند موته المادى، يتخذ عدة صور للحياة، وهى الهويات الروحية أو الفلكية السبع التى تتشكل إثر الوفاة المادية. وتعتبر «كا» أو القرين هى الأولى، وقد ولدت فى نفس وقت ميلاد الجسد، وعادت لتتوحد معه مباشرة ، إثر الوفاة، وتواصل الحياة بعد ذلك. وكان يشار للموت أيضا بأنه ذهاب الشخص إلى «كا» الخاصة به. ويأخذ الشكل الهيروغليفى للفظ «كا» ذراعين مرفوعين لأعلى يحتضنان السماء. وأثناء الحياة، تعمل «كا» كناصح وضمير. وعند الموت تقيم فى مقبرة المتوفى، أو فى تمثاله، وتعيش

على الجوهر الروحى لقرابين الغذاء اليومية أو «أوت» التى يقدمها الكهنة والأقارب. وتترك القرابين بالتحديد لتغذية ال «كا»، حتى يمكنها مغادرة المقبرة والعودة إليها كلما أرادت. وعندما يتوقف تقديم القرابين فى نهاية الأمر، تتغذى «كا» ـ روحيا ـ على اللوحات المرسومة لأنواع الطعام، داخل المقبرة. و «كا» هى قوة الحياة، ، والقرين الفلكى، أو التوأم الروحى، وتقيم فى تمثال المتوفى. ومن دون الجسد المادى، لا تستطيع «كا» أن توجد، وهذا هو السبب الرئيس فى ضرورة الحفاظ على الجسد. ومن دون «احتفال فتح الفم»، لا يستطيع المتوفى تذوق أو تناول القرابين. وقد عثر على «كا» الملك «توت عنخ آمون» ضمن كنوزه الملكية، ببشرة سوداء بلون الموت، ترتدى تنورة، وقلادة وغطاء رأس، كلها مذهبة.

اما «با»، فهى قوة الحياة الموضوعية للنفس، وهى جوهر السمات الفردية والمتميزة للمرء. وعندما يموت الجسد، تولد «با»، وهى قادرة على مغادرة المقبرة خلال ساعات النهار، لتعود ليلا. ويعتقد أن «با» هى الشخصية، والروح، أو النفس الثانوية. وفى العالم السفلى تأخذ شكل نسر برأس إنسان وذراعين أو جناحين، وغالبا ما تظهر محلقة بخفة فوق المومياء فى النقوش الجنائزية.

و«آخ» هى تصور «كا» و «با» مجتمعتين. وهى روح من الضوء والشكل القادر على الاتصال والتفاعل مع الأحياء، فى حين تتنقل بين المنازل السماوية. وإلى "آخ" يرسل الأقارب رسائلهم، عندما يطلبون نصيحة، أو مساعدة، أو إرشاد، أو المغفرة من أحبائهم الراحلين. وغالبا ما تكتب الرسائل إلى الأقارب الراحلين فى صورة نقوش على أوان، ويبدأ نص الرسالة من الحافة العليا، ثم يتخذ طريقه دائريا وهابطا حتى قاع الإناء الذى يوضع فى مقبرة المتوفى. و«آخ» هى الحالة النهائية من حالات تحول روح المومياء. وهى الشكل والظل المتألقان والساطعان، اللذان تتخذهما الروح بعد الموت، حيث تتنقل «آخ» عبر الأبدية فى «أمنيتى» «بلاد الموتى».

ويبرز الرقم سبعة دائما عبر الأساطير وتاريخ مصر، كما سنوضح فى فصل لاحق. ومن ثم أضيفت أربع أنفس روحية، بالإضافة إلى «كا» (الروح)، و«با» (الشخصية)، و«آخ» (الخلود) ليصبح المجموع سبعا: «خو» وهى جانب آخر من جوانب النفس الخالدة؛ روح عقل المتوفى، و«ساهو» وهى نفس الفلك وهى على درجة متقدمة من المعرفة والتأثير، أما «خايبيتى» فهى جسد الظل، و«أورا» التى توفر الحماية من الأذى.

ماذا يكمن فى الاسم؟

يمنح الطفل اسمين ؛ واحد للاستخدام اليومى ، والآخر يبقى تحت حراسة وثيقة ، خشية أن يستخدم ضد الطفل . وكان يظن أن معرفة الاسم الحقيقى لشخص يضمن التأثير والسيطرة عليه ، و يعتقد أن جوهر الشخص ، أو الحيوان ، أو الإله ، يتجسد فى اسمه الحقيقى . وينقش الاسم الحقيقى للمتوفى (أو «رين» مثلما كان يطلق عليه) على حجر ، ويعتقد أنه يحتوى روحه الدينية . ويؤدى محو الاسم إلى تبديد أى فرصة لخلوده ، حيث تزول الروح الدينية مع زوال الاسم . ومن دون هذا الاسم ، لا يمكن للمرء أن يوجد ، ولا أن يدخل مملكة الآلهة . ويعتقد أيضا أن الحديث عن الميت يعيده للحياة ثانية ، بالإبقاء على ذكراه وروحه حية . وكان «رين» يذكر فى النصوص الجنائزية للمتوفى ، وينقش على جدران المقبرة وأغراض الدفن .

وكان للآلهة خمسة أسماء . فمثلا كان لدى «رع» عدة أسماء ، لكن «رين» الخاص به هو مفتاح قوته الحقيقية وجوهره . وإذا عرف أحد الاسم الحقيقى للإله ـ الذى لم يكن يتلفظ به ـ فإنه يستطيع أن يسلبه السلطة . وتوضح القصة التالية أهمية الاسم السرى للمرء :

قصة رع وإيزيس

مع تقدم سن «رع» خالق الجميع ، فى حياته الفانية ، كان سائرا على الأرض التى خلقها ، واللعاب يسيل من فمه كرجل مسن . فدبرت «إيزيس» التى يملؤها الطموح واللهفة على النفوذ خطة لتجريد «رع» من قوته حتى تكسبها لنفسها . وقامت «إيزيس» بجمع بضع قطرات من لعاب «رع» وخلطتها بالتراب . ومن هذا الخليط صنعت «أبوفيس» الثعبان السام والعدو الأبدى لرع ، ونفخت فيه الروح . وفى حرص ، وضعت «إيزيس» «أبوفيس» فى الطريق الذى يسير فيه «رع» يوميا ، ثم توارت عن الأنظار . ومع اقتراب «رع» ارتفع «أبوفيس» من الأرض ولدغ كاحله أثناء سيره . وبعدها اختفى وعاد إلى داخل الأرض .

وصرخ «رع» من الألم وتعجب ، من أين جاء هذا المخلوق الشرير ـ لأنه يعلم أنه لم ينفخ الروح فى هذا المخلوق السام ، ومن ثم ليس له سلطان عليه . ووسط يأسه ،

استدعى رع الآلهة لطلب العون. فجاءوا من الرياح، ومن الأرض، والصحراء، والماء. وجاءت «إيزيس» من ضمنهم، وكانت أول من خطى إلى الأمام وتحدث.

وباعتبارها «ربة السحر» وعدت «رع» بتخليصه من عذابه، إذا صارحها باسمه الحقيقي. وحاولت إقناعه أنها ستضع هذه المعرفة والقوة الجديدة ضمن تعويذة تشفيه من الألم، غير أن «رع» رفض. واستمر الألم يشتد، مع سريان السم فى جسده، وفى نهاية الأمر كشف عن جميع أسمائه... ما عدا الـ «رين». ولم يكن من السهل خداع «إيزيس» الماهرة، فبدأ صبرها ينفد. وتزايد كرب «رع»، وأصبح عظيما إلى الحد الذى دفعه لأن يسر باسمه الحقيقى الـ «رين» فى أذنها.

وفورا، انتقلت قوة «رع» إلى «إيزيس»، وتوقف سريان السم فى جسد «رع». وتعهدت «إيزيس» باستخدام قوتها الجديدة فى أغراض الخير ولخدمة البشر.

كان يتعين أن يكون لها مستقبلا واعدا كشخصية سياسية!

***

ـ ١٤ ـ

المعبـودات

عبد المصريون القدماء آلهة وربات، أو «نترو» عديدة، ولدت من المعتقدات الجمعية للشعب. فكل ما يحدث فى الطبيعة ـ مجاعة، فيضانات، زلازل، عواصف، وجميع الأحداث المؤثرة على الحياة البشرية بوجه عام ـ اعتبر أنه نتيجة لأعمال إله معين. وكل شىء خاضع لحماية (أو تهديد) هذه المجموعة العظيمة من الآلهة، التى كثيرا ما يندمج بعضها فى إله واحد؛ مثل «آمون ـ رع»، و «پتاح ـ سوكر»، و «أوزير ـ حاب».

وصورت القوى الإلهية فى هيئة بشرية، أو حيوانية، وعلى نحو خاص فى صورة تجمع بين الهيئتين. ولم يكن ذلك نوعا من الشرك، بمعنى تعدد آلهة متساوية المكانة، وإنما كانوا يعبدون إلها مركزيا واحدا باعتباره الخالق الحى الذى لا يموت، والمصدر الأول والكائن الأعلى الذى جاءت منه جميع الآلهة.

وتتنوع سمات وملامح الآلهة المتعددة. كما نشأت آلهة محلية فى الأقاليم، كل منها له شخصيته وتقاليده. وقد بدأت عبادة «رع» العظيم فى «لونو»(*)، و«آمون» فى «أواست» و«پتاح» فى «منف»، باعتبارها آلهة محلية، ارتقت فى آخر الأمر وأصبحت تعبد باعتبارها آلهة للدولة. . وعبدت آلهة كونية أيضا، باعتبارها الكائنات التى شاركت فى خلق البشر. واستمرت عبادة الآلهة الكلية، مثل «ماعت» و «نون» (الكتلة المعتمة الرطبة التى نشأ عنها جميع الآلهة) خلال تاريخ مصر القديمة. كما عبدت آلهة ثانوية، مثل «توريت» و «بس» على مستوى شخصى، داخل البيوت، كآلهة منزلية.

(*) توضح المؤلفة فى موضع لاحق من الكتاب أنها هليوبوليس بالإغريقية أو «عين شمس» ـ المترجمة.

ورتبت بعض الآلهة ضمن ثالوث؛ مجموعات من ثلاثة آلهة مرتبطة معا؛ عادة فى هيئة أسرة من أب وأم وطفل. وبين هذه المجموعات، الثالوث المقدس فى «آبو» و فى «أواست»، و«منف».

القوى ذات الأهمية

فيما يلى قائمة أبجدية(*) لبعض الآلهة «نترو» التى استمرت عبادتها لما يزيد عن ثلاثة آلاف عام. ويشار إلى الآلهة بأسمائها المصرية الأصلية، مع التغييرات المناسبة

● Akru (Akeru) أكر (أكرو فى صيغة الجمع)، الأسدان اللذان يحرسان الشمس فى شروقها وغروبها. ويترجم الاسم إلى «المنحنى». وهو فى الأصل إله قديم للأرض، ويحرس بوابات الفجر، التى تشرق منها الشمس يوميا. ويصور على هيئة أسد ذو رأسين، أو أسدين يضع كل منهما ظهره فى ظهر الآخر، وبينهما رمز للأفق. واسم أولهما «دو» أو «تو»، والآخر «سف» وترجمتهما على التوالى «اليوم» و«أمس». وكان آكر يعبد فى «نای ـ تا ـ حوت» (ليونتوبوليس) وهناك لوحة تصوره فى مقبرة نفرتارى (من الأسرة التاسعة عشرة).

● Amen (Amun,Amon,Ammon.Ammoun) آمون: ملك آلهة طيبة، ويعرف أيضا بسيد الخلق وحامى الفقراء والضعفاء. ويعنى اسمه «المختفى». وصور «آمون» على هيئة رجل وسيم يرتدى تاجا له ريشتان. واعتبر الكبش والماعز حيوانيه المقدسين اللذين يربيان ويتغذيان فى معابده. وآمون الذى خلق نفسه بنفسه، زوج «موت» «الأم العظيمة». وأنجب الاثنان «خنسو» إله القمر. وعندما أصبحت «أواست» عاصمة البلاد خلال عصر الدولة الوسطى، ارتقى آمون ليصبح إله المملكة. ولما كان «رع» يعبد باعتباره خالقا آخر، فقد ارتبط آمون به، وأصبح يعبد كمعبود مركب باسم «آمون ـ رع» ملك الآلهة.

● Anpu (Anubis,Inpu,Yinepu) «أنوبيس»، الإله ذو رأس ابن آوى، إله خبراء التحنيط، والمومياوات، وحارس الجبانة. وهو معبود قديم، ترجع عبادته إلى الدولة

(*) الترتيب فى الكتاب الأصلى وفق الأبجدية الانجليزية، وقد فضلت الاحتفاظ بالترتيب وفق ما كان عليه فى الكتاب الأصلى، ووضعت الأسماء كما هى باللغة الإنجليزية لتسهيل النطق بمعرفة شكل الحروف ـ المترجمة.

القديمة. وكان أول من أجرى عملية تحنيط، عندما حنط جثة «أوزوريس». وتصور بشرة أنوبيس باللون الأسود رمزا للموت، والبعث. ويترجم اسمه إلى «الطفل الملكى». وقد ولد من علاقة غير شرعية بين «أوزيريس» و«نبت ـ حت». بينما يعتقد البعض أنه ابن «ست» و «نبت ـ حت».

● Anqet (Anukis,Anuket) «عنقت»، إلهة المياه، التى عبدت فى «آبو» حيث يقع الشلال الأول. ويعتبر الغزال حيوان «عنقت» المقدس، وهى ترتدى تاجا من الريش أو الحطب فوق رأسها. ويترجم اسمها إلى «الحاضنة» حيث تحتضن النيل. وهى زوجة «خنمو»، وقد شكلا مع ابنتهما «ساتيت» ثالوث «آبو». ويعتقد البعض أن «ساتيت» شقيقة «عنقت» وزوجة «خنمو».

● Apep (Apophis) «أبوفيس»، الثعبان المخيف إله العالم السفلى، عدو «رع» وابنته «باست». وهو التشخيص لظلمة الليل. ويقدم «كتاب هزيمة أبوفيس» تعاويذ سحرية، تهدف لمساعدة الناس على النجاح فى محاربته؛ وإحداها تمكن طالب التعويذة من معرفة الاسم الحقيقى لأبوفيس. ويعتقد أن هذا النص يرجع إلى عصر الرعامسة.

وعزا المصريون القدماء، غروب الشمس يوميا إلى أن «ابوفيس» كان يبتلعها. ويعتقد أنه كان يسكن فى أعماق مياه «نون». وعندما ينتقل «رع» كل يوم بمركب الشمس عبر السماوات؛ يواصل «أبوفيس» معركته التى لاتنتهى لتدميره. وخلال العواصف التى تحجب أشعة الشمس، وفى أوقات الكسوف الشمسى، كان المصريون يعتقدون أن «أبوفيس» حقق انتصارا على «رع». وللمرء أن يتخيل فقط مدى رعب المصريين المتعلقين بالروحانيات والغيبيات أثناء حدوث كسوف كلى للشمس.

● Atem (Atum,Tem,Temu) «أتوم»، إله الشمس الذى خلق نفسه بنفسه، ووالد «شو»و«تفنوت». ويترجم اسمه إلى «الكامل»، ويؤمن التابعين لمذهب آتوم بأنه خالق الكون. ويرمز خفرع إلى الشمس المشرقة، ، بينما يمثل رع الشمس عند الظهر، عندما تكون فى ذروة قوتها. ويرمز «آتوم» للشمس الغاربة. ويصور «آتوم» عادة، مثلما «آتون»، فى صورة رجل، ويندمج أيضا فى رع، ليعبد تحت اسم «آتوم رع»، أو «رع آتوم».

● Aten (Aton) «أتون»، قرص الشمس المرئى والشمس نفسها، وبدأت عبادته منذ عصر الدولة الوسطى. ونبع جوهر هذا المعبود من دفء وضوء الشمس. وفى عهد «أخناتون» (الدولة الحديثة) حل «أتون» محل مجموعة الآلهة المصرية كلها، وأصبح الإله الوحيد. ويصور «اتون» غالبا بأشعة ممتدة تنتهى ب «عنخ»، أو الأيدى التى تطوق البشرية. ويقع مركز عبادته فى المدينة التى أنشأها «أخناتون»، المعروفة باسم «أخيتاتون» (أفق أتون)، وتعرف الآن باسم «العمارنة».

● Ausar (Osiris,Asar,Wisir) «أوزيريس»، هو فى الأصل إله الأرض والحياة النباتية، وعاد للحياة مرة أخرى كإله الموتى والبعث. وعند موته، صار «أوزيريس»، ـ بمساعدة ابنه «أنوبيس» وزوجته «إيزيس» ـ المومياء الأصلية. فقد علم «أنوبيس» «أوزير» فن التحنيط، وبهذه المهارة والمعرفة، بعث «أوزيريس» للحياة مرة أخرى. و«أوزيريس» هو تجسيد دائرة البعث. وهو قاضى وحكم العالم السفلى وسيد «أمنيتى»، بلاد الموتى. ويصور «أوزيريس» أيضا فى هيئة بشرية، بألوان مختلفة: الأسود يرمز لظروف موته، والأبيض لهيئته المحنطة، والأخضر يصور قدرته المتجددة، البعث، بينما يذكرنا بمكانته الأصلية كإله الفيضان والحياة النباتية. ويترجم اسمه إلى «ذلك الذى يرى العرش» ويقع مركز عبادته عند «أبدچو» (أبيدوس). و«دجدو» أو «بير اوزير» (أبوصير).

● Auset (Isis,Aset,Ast) «إيزيس»، زوجة وشقيقة «أوزيريس»، وأخت «نبت ـ حت» و «ست». وهى «سيدة السحر» و «حامية الأطفال». وتعرف بتاجها الذى يشبه العرش، أو المقعد، الذى هو معنى اسمها. كما أنها من ساعدت «أنوبيس» الذى منح «أوزيريس» حياة خالدة. و«إيزيس» أهم ربات مصر القديمة. وهى أيضا واحدة من أربع ربات لحماية الموتى.

● Bast (Bastet) «باست»، ذات رأس القط، إلهة الاحتفال، والحب، والبهجة، والنشوة المقدسة من الخمر، والموسيقى، والسحر. وهى ابنة «رع» و «أوزيريس»، وترجع عبادتها إلى نحو ٣٢٠٠ قبل الميلاد فى مدينة «بير باست» (بوباستيس، وحاليا تل بسطة)، حيث بنيت جبانة واسعة للقطط. ويمكن تفكيك اسمها إلى «با ـ آست» الذى ترجمته «روح أوزيريس». وتحمى «باست» القطط، فضلا عن أولئك الذين يعبدون هذا الحيوان بالغ القداسة.

● Bes «بس»، إله الولادة المرح، ذى رأس فظ المنظر، حامى الأطفال والحارس من الكوابيس. وهو أيضا إله الموسيقى، والرقص، والمرح، وفراش الزوجية، وكان يعتقد أنه يمنح حسن الحظ للمتزوجين حديثا. وبخلاف الآلهة الأخرى، غالبا ما يصور «بس» فى هيئة كاملة من الأمام. وغالبا ما تعلق تميمة بصورته كتعويذة حظ سحرية. ويمكن وصف«بس» بأنه قزم ذى لحية، وغطاء رأس من الريش، وقناع لوحش من فصيلة الأسود. ونظرا لكونه لطيفا وطيبا، كان «بس» يحكم البهجة والنشوة. ولم يكن لهذا المعبود مركزا لعبادته أو معبدا مخصصا له، غير أنه كان محبوبا للغاية وغالبا ما يعبد بصورة خاصة فى البيوت.

● Duamutif (Tuamutef) «دواموتف»، حامى معدة المتوفى، وحاكم الشرق. وهو واحد من أبناء حورس الأربعة، الذى تحميه، «نيت»، بدورها. ويترجم اسمه إلى «ذلك الذى يمجد أمه». ويصور «دواموتف» على هيئة رجل محنط برأس ابن آوى.

● Geb (seb) «جب»، إله الأرض وخالق الجبال. وهو زوج وشقيق«نوت» إلهة السماء، وابن «شو» و «تفنوت». وغالبا ما يصور على هيئة أوزة بيضاء، أو رجل برأس أوزة؛ ويمكن أن يظهر ببشرة خضراء، ممثلا الحياة، أو سوداء رمزا للأرض الخصبة. وفى بعض الروايات يعرف «جب» بأنه «الطائر العظيم» الذى قطع صمت العالم بوضع أول بيضة كونية للخلق(*).

● Hap (Apis) حاب «أبيس»، أحد آلهة الخصوبة، الثور المقدس معبود «منف». وفى العصر البطلمى، اتحد مع «أوزيريس» وعرف باسم «أوزير ـ أبيس» (سيرابيس)(**). ويصور «أبيس» على هيئة ثور يعلو رأسه قرص الشمس، والكوبرا الملكية «أوراكوس». وهو المعبود الوحيد الذى يصور على هيئة حيوان كامل.

(*) حفل التاريخ الفرعونى بأساطير مختلفة حول نشأة الخلق ومن بينها أسطورة ترجع الخلق إلى ظهور بيضة غريبة غامضة من العدم، انكسرت قشرتها ذات يوم فخرج منها إله الشمس الذى صعد للسماء، وغيرها من الأساطير التى تتبدل فيها أدوار الآلهة وأسماؤهم أحيانًا من إقليم لآخر ومن فترة زمنية لأخرى، ففى روايات أخرى يرجع خلق هذه البيضة إلى تحوت، كما ورد فى معجم الحضارة المصرية القديمة ترجمة أمين سلامة، والصادر عن الهيئة المصرية للكتاب ـ المترجمة.

(**) يشير المرجع السابق إلى أن سيرابيس كان معبودا يشترك فى عبادته الإغريق والمصريون، وانتشرت عبادته فى الإسكندرية ـ المترجمة.

● Hapi «حعپى»، معبود مخنث، يجسد النيل. وهو زوج «نخبت» و «واجت»، سيدتى الأرضين. ويترجم اسمه إلى «الجارى». ويعرف بتاج زهور اللوتس أو نباتات البردى التى يرتديها فوق رأسه. كما يصور على هيئة رجل بدين، منبعج البطن، يرمز للفيضان وخصوبة النيل.

● Hapy «حاپى» من أبناء حورس، حامى رئتى المتوفى، ويصور على هيئة رجل محنط برأس قرد. وهو حاكم الشمال، وتحميه «نبت ـ حت».

● Heka «حكا»، إله السحر، والطاقة المقدسة، ومثله الإلهة «ويريت حكاور». ويجسدان معا أساليب السحر، ويصوران كثعبانى كوبرا، أو بشريين برأسى كوبرا.

● Heqet (heket) «حقت» برأس الضفدع، إلهة الولادة، والخصوبة، والبعث. وهى زوجة «خنمو» وغالبا ما كانت تستحضر لتسهيل عملية الولادة وحماية الأم. ولما كانت الضفادع تظهر خلال موسم الفيضان علامة على الوفرة، كانت «حقت» تعبد فى هذه الهيئة.

● Heru (Horus) «حورس» الصقر، أو الشمس برأس صقر، إله السماء والأفق. ويترجم اسمه إلى «ذلك الذى فى الأعالى». وترمزعينا «حورس» إلى الشمس والقمر. وحورس هو إله الحياة وسيد السموات. وكان يعبد فى عديد من الصور المتميزة، ومنها ابن «أوزيريس» و«إيزيس»، المولود بعد وفاة والده، والمعروف باسم «حيرو ـ سا ـ أوست» الذى يترجم إلى «حورس ابن أوزيريس». ويعرف أيضا باسم «حور ـ بو ـ كرات» (حاربوقراطيس)(*)، وباسم «حيرو ـ أور» الذى يعنى «حورس العظيم». وهو الابن المحارب ل «نوت» و «جب» وشقيق «أوزيرس» و«إيزيس» و«نبت ـ حت» و «ست». ويعرف أيضا باسم «هيرو ـ بهادتى» المنتقم لقتل والده «أوزيريس».

● Het -Heru (Het-Hrew, Hathor, Hathoor,Athyr) «حتحور» الإلهة برأس بقرة، رفيقة «حورس»، وتعرف أيضا باسم «البقرة المقدسة». وهى ربة السماء، والحب، والفرح، والموسيقى، والرقص، والسرور، والخصوبة، والولادة. وهى أيضا ربة النشوة من الخمر، ووفقا لإحدى الرويات، فقد أصبحت كذلك، عندما

(*) حاربوقراطيس باللغة المصرية يعنى الإله الطفل، الذى صنعت له فى عصر متأخر تماثيل من البرونز كطفل يرضع إصبعه. المرجع السابق ـ المترجمة.

هدأت «سخمت» بعدما ثملت من شرب الجعة المصبوغة بالطفل الأحمر. ويترجم اسمها إلى «بيت حورس». وهى ابنة أخرى للإله «رع»، وتعرف بأنها أحد مظاهر «إيزيس». وكان مركز عبادتها ومعبدها فى «لونت» (دندره).

● Imseti (Amset, Mestha, Mesti) «إمستى» أحد أبناء «حورس» الأربعة، ويحرس كبد المتوفى وهو يحكم الجنوب. ويصور على هيئة رجل محنط وتحميه الإلهة «إيزيس»، ويعتقد أن «إمستى» ساعد «أنوبيس» فى تحنيط «أوزيريس».

● Khepera (khepre,Khaphre, Khepri, Kheper) «خبر»، الإله برأس جعران، خالق نفسه، رب البعث والوجود. وهو التشخيص للشمس المشرقة يوميا. ويترجم اسمه إلى «يصبح»، أو «يوجد»، أو «يخلق». و«خبر» الذى يعبد فى صورة تميمة «الجعران» التى تجسد أوضاعه المادية والكونية.

● Knemo (khnum) «خنوم»، ذو رأس الكبش، إله الخصوبة، وفيضان النيل، وخلق العالم. وشكل مع زوجته «عنخت»، إلهة الماء، و«ساتيت» إلهة الخصوبة وفيضان النيل، ثالوث «آبو».

وتحكى قصة نقشت على صخرة عن قوة وأهمية «خنوم». وتبدأ الأسطورة خلال السنة الثامنة عشرة من عهد زوسر، وكانت مصر لم تشهد ارتفاعا كافيا لمياه النيل لمدة سبع سنوات، وانتشرت المجاعة فى البلاد، وحار الفرعون بشأن الأحوال. فاستدعى مستشاره الخاص وسأله عن منبع النيل والإله الذى يتحكم فيه. فأوضح المستشار أن النيل ينبع من كهف يدعى «كيرتى» فى «آبو»، حيث يوجد معبد مكرس لعبادة «خنمو»، وينبغى أن تقدم له القرابين لأنه الوحيد الذى يفتح بوابات تدفق مياه النيل.

وعمد زوسر إلى تقديم العديد من القرابين للإله «خنمو» ساعيا لإرضائه. فظهر «خنمو»، ووعد بأن يرفع مستوى مياه النيل كل عام فى نفس الوقت الذى كان يرتفع فيه قبل ذلك. غير أنه اشترط شرطا واحدا؛ فمعبده فى «آبو» أصبح مهملا ويبدو أن الناس تخلوا عنه عمليا، لذلك طلب من «زوسر» أن يعيد تجديد المعبد مقابل عودة الفيضان. وعمد الفرعون إلى ترميم المعبد بأقصى ما يستطيع، واصدر مرسوما بتخصيص أرض على ضفتى النيل قرب «آبو» لمعبد «خنمو». كما عين كهنة لرعاية

المحراب بعد تجديده. وتعين نقش هذا المرسوم الملكى على لوح حجرى، ليعرض كتعبير عن الامتنان لخنمو عن إنهاء الجفاف بإعادة فيضان النيل السنوى.

ونقشت القصة كلها على صخرة عرفت باسم «نصب المجاعة» وضعت عند الشلال الأول للنيل، حيث ما يعتقد أنه مقر إقامة «خنمو». ورغم أن القصة وقعت خلال عصر الأسرة الثالثة، إلا أنه يعتقد أن نقشها حدث خلال العصر البطلمى.

● Khonso (Khenso) «خنسو»، إله قمرى لطيف، يصور على هيئة طفل محنط يضع خصلة الشعر الجانبية الخاصة بالشباب، ويرتدى تاجا على هيئة الهلال. وهو الابن المتبنى الثانى للإله «آمون» و الإلهة «موت»، ويشكل معهما ثالوث «أواست». ويترجم اسمه إلى «المسافر» أو «الجوال»، باعتباره إله القمر المتحول. ويمتلك أيضا قدرات علاجية كما يظهر من القصة التالية:

خلال عهد «رعمسيس العظيم»، عاشت فتاة باهرة الجمال فى بلاد «بختن»، وهى الابنة الكبرى لأمير البلاد. وكان جمالها بالغ حتى أنها قورنت بالربات. فرغب الفرعون فى الزواج منها، وهو المنتصر العظيم الذى تعود أن ينال ما يريد. وبالطبع نفذت مشيئته، وأسماها «رع ـ نفرو» (محاسن رع)، وسرعان ما تولت مهماتها كزوجة للفرعون. وعاشا معا حياة سعيدة. وفى أحد أيام السنة الخامسة عشرة من عهد الفرعون المديد، أحضر رسول رسالة من ملك «بختن»، يقول فيها أن «بنت ـ ريشيت» الشقيقة الصغرى للملكة مرضت. وتوسل للفرعون أن يرسل طبيبا بارعا لعلاج ابنته الصغرى. واستدعى «رعمسيس الثانى» أفضل معالج فى البلاد، وأرسله فورا إلى أرض «بختن». وبعد فترة قصيرة، أدرك الطبيب أنه لا يجد علاجًا لما ابتليت به شقيقة الملكة، سواء كان مرضا، أو لعنة، أو مسا من روح خبيثة. ومرة أخرى، أرسل ملك «بختن» رسالة إلى الفرعون ؛ لكنه التمس هذه المرة الحصول على القوى العلاجية لأحد الآلهة. وعندها، ذهب «رعمسيس الثانى» إلى معبد «خنسو» وتضرع من أجل زوال البلاء عن الفتاة. وتقول الأسطورة أن تمثالا للإله «خنسو» وصل إلى «بختن» بعد ١٧ شهرا. وعندما واجه «خنسو» الروح الشريرة التى مست الأميرة، عقدا صلحا معا، واستردت الأميرة صحتها.

وأذعنت الروح الشريرة لـ «خنسو»، لكنها اشترطت أمرا واحدا قبل رحيلها: أن يعد ملك «بختن» مهرجانا كبيرا لتكريم «خنسو» وتكريمها معه. وعندما انتهى الحفل، التزمت الروح بتعهدها، وعادت من حيث أتت. بيد أن القلق ظل يتناوش ذهن الملك، وخشى أن تعود هذه الروح إذا عاد تمثال «خنسو» إلى مكانه الأصلى فى مصر. واحتفظ الملك بالتمثال فى «بختن» ثلاثة أعوام وخمسة شهور وأربعة أيام؛ ثم عاد إلى مصر نتيجة حلم مشئوم، سنبحثه لاحقا. ونقشت هذه القصة على لوح يعود إلى عام ٣٠٠ قبل الميلاد.

● Ma'at «ماعت»، تجسيد وإلهة الحقيقة والعدالة والتآلف. كما أنها تجسيد للقانون والنظام الكونى. وهى ابنة «رع»، ويمكن تمييزها بريشة النعامة البيضاء التى تضعها فوق رأسها رمزا للحقيقة.

● Maftet (Mafdet, Mefdet, Maldet) «مافتيت»، الإلهة النمرة، التى عاونت «رع» فى التغلب على «أبوفيس». ووفقا للأسطورة، تناصر «مافتيت» المتوفى، وتوفر له الحماية ضد لدغات الثعبان. ويظهر اسمها فى «متون الأهرامات» حيث تقضى على الثعابين بواسطة مخالبها الحادة.

● Menu (min) «مين»، إله المطر والحياة النباتية، والقوى الجنسية، والفحولة. وهو من أقدم الآلهة المصرية. وكانت تقدم له القرابين من نبات الخس لما يعتقد فى احتوائه على خواص منشطة جنسيا. وعبد أولئك الذين يرغبون فى تحفيز الفحولة والخصوبة لديهم هذا الإله فى «قبطو» (كوبتوس).

● Mertserger «مرتسرجر»، الإلهة الكوبرا، وسيدة الغرب، وهى إلهة الصحراء، وحامية من الأفاعى المخيفة فى تلك المنطقة. وتصور أيضا برأس صقر. وهى تحرس جبانة «أواست» ويترجم اسمها إلى «محبوبة الصمت».

● Montu (Monthu, Mentu) «مونتو»، إله الحرب، برأس الصقر أو رأس الثور. وهو أول ابن متبنى لآمون و«موت». وكان يعبد فى «پير ـ مونتو» (هرموتيس). ويترجم اسمه إلى «البدوى».

● Mut، «موت» الإلهة الرخمة(*)، ربة السماء، وابنة أخرى لرع. وهى زوجة

(*) طائر من فصيلة النسريات ورتبة الجوارح ـ المترجمة.

«آمون» وأم «خنسو». ويترجم اسمها إلى «أم»، وهى تعبد باعتبارها «أم الجميع المقدسة» و «أم طيبة العظيمة».

● Nebet-Het (Nephthys) «نفتيس»، ابنة «جب» و «نوت»، شقيقة «أوزيريس» و «إيزيس» وزوجة «ست». ويترجم اسمها إلى «سيدة البيت». ويعتقد أنها هى التى صنعت أربطة الكتان لمومياء «أوزيريس». وهى إحدى ربات الحماية الأربع للميت. وكانت تعبد فى الوجه القبلى مع الإله «ست». وتصميم تاجها يصور اسمها بالهيروغليفية.

● Nefertem (Nefertum) «نفرتوم»، زهرة اللوتس إله العبير، ابن «بتاح» و«سخمت» (يشكل معهما ثالوث منف). ويدمج «نفرتوم» مع إله الشمس «رع»، حيث تتفتح تويجات زهرة اللوتس مع شروق الشمس. ويعتقد أنه نشأ عن مياه «نون» البدائية. ويصور على هيئة رجل وسيم، ويعرف بتاج زهور اللوتس فوق رأسه. وهو يصور أحيانا برأس أسد، إشارة إلى أمه «سخمت» الإلهة اللبؤة. ويترجم اسمه إلى «جمال آتوم».

● Nekhbet «نخبت» الإلهة الرخمة زوجة «حابى» التى حمت فراعنة الوجه القبلى. وهى أيضا إلهة الولادة. وعرفت «نخبت» و «واجت» اللتان ترعيان صعيد مصر باسم «نبتى» (السيدتان).

● Nit (Neith) «نيت» إلهة الخير والصيد. وباعتبارها إحدى الإلهات الحارسات الأربع، فهى أيضا راعية النساجين. وكان مركز عبادتها فى ساو (صالحجر). وتصور غالبا على هيئة امرأة ترتدى تاج الوجه القبلى، الأحمر. وهى أم «سوبك» الإله ذى رأس التمساح.

● Nun «نون» إله المياه البدائية التى يعتقد أنها أصل الحياة كلها. ويترجم اسمه إلى «اللج».

● Nut (Nuit) إلهة السماء، وزوجة «جب». وهى أيضا ابنة الإله الأسد «شو» و«تفنوت». واعتبر جسدها خالق السماء وهو الذى شكلها. ومن ثم فهى تصور غالبا على هيئة لون أزرق يمتد فوق الأرض. وتجسدها امرأة ترتدى ثوب أزرق ضيق تتناثر

فيه النجوم، تمثل سماء الليل. و «نوت» أم «إوزيريس» و«إيزيس» و«نبت ـ حت» و«ست».

● Pakhet (Pakht,Pekhet) «بخت»، الإلهة القطة والأسد التى ترعى جميع المصريين، موتى وأحياء. وعرف الإغريق «بخت» باسم «أرتميس». ويترجم اسمها إلى «هى التى تخدش»، وترتبط غالبا بالإلهة «سخمت»، واعتبرت أحد مظاهرها. وقد بنت الملكة «حتشبسوت» من الأسرة الثامنة عشرة معبدا لعبادة «بخت».

● Ptah «پتاح» إله الصناع، والبنائين، والفنانين. و«پتاح» الذى يعنى «الفتاح»، واحد من أقدم وأحب الآلهة فى مصر القديمة؛ والإله الخالق لمنف، وزوج «سخمت». وهو يصور، مثله مثل «خنسو» فى صورة إنسان محنط. واعتبر المؤمنون به فى «منف» أنه خالق البشر وجميع المخلوقات. حيث أنه بمجرد أن نطق باسم كل مخلوق، خرج ذلك المخلوق إلى الوجود. وتقول أسطورة أخرى أنه خلق «پت» (السماء) و «تا» (الأرض)، بأمر من «تحوتى». وربما كان اسمه ناتج جمع «پت» و«تا».

● Qebensenuef (Kebensenuef) «قبنسو نف»، أحد أبناء حورس، الذى يحرس أمعاء الميت. وتحميه، بدورها، الإلهة العقرب «سلكت». و يصور على هيئة رجل محنط برأس صقر. وهو يحكم الغرب.

● Ra (Re) «رع»، إله الخلق؛ الشمس برأس الصقر، أبو الملوك، ومن أهم المعبودات؛ خصوصا فى مركز عبادته «لونو» (هليوبوليس التى تعنى بالإغريقية «عين شمس»). وهو يتوحد مع الشمس. ويعتقد المؤمنون به أن البشرية والحياة كلها نبعت من دموع «رع» عندما انتحب على الخلق وجمال الإنسانية. فبدون «رع» أو الشمس التى يجسدها، كانت مصر ستعيش فى ظلام تام. وساد الاعتقاد أن رع يولد من جديد عند كل فجر، ويموت عند الغروب. واعتبر طفلا عند شروق الشمس، ورجلا قويا فى ذروة الظهيرة، ورجلا عجوزا عند اقتراب الغروب. ثم توحد مع «حورس» وأصبح يعبد باسم «رع ـ حو آختى» الذى يترجم إلى «رع الذى هو حورس الآفاق».

● Renenutet (Rennet) «رع نينت»، إلهة حسن الحظ، والخصوبة والحصاد، برأس الكوبرا. وعقدت مهرجانات الحصاد على شرفها. وكانت أيضا حارسة أثناء الولادة.

● Satet (Satis) «ساتيس»، إلهة الخصوبة، وفيضان النيل السنوى. وهى إما ابنة أو زوجة «خنمو»، وشكلت معه ومع شقيقتها ـ أو أمها «عنقت» ـ ثالوث «آبو».

● Seker (soker, socharis) «سوكر» إله الضياء، ذو رأس الصقر، وحامى الأرواح التى تنتقل عبر العالم السفلى والحياة الأخرى. وهو راع رئيس للصناعات الجنائزية، والبنائين فى جبانة «أواست». وفيما بعد اتحد «سوكر» مع «پتاح» و«أوزيريس»، وصار يعبد باسم «پتاح ـ سوكر ـ أوزير»، وباعتباره يجسد الخالق «پتاح»، والاستقرار «سوكر» والموت «أوزيريس».

● Sekhmet «سخمت»، إلهة الحرب والدمار، اللبؤة، ابنة «رع»؛ ولدت من نار عينه الشمسية عندما عاقبت البشر بسبب عدم ولائهم، وقلة احترامهم «رع» المسن. وهى الجانب المظلم من«حتحور»، غير أنها متفردة فى ذاتها؛ فسخمت تدمر لتمهد الطريق للتقدم. وهى ربة للعلاج أيضا، حيث تطرد الشر الذى تجلبه الأمراض. ويترجم اسمها إلى «القوية». وهى زوجة «پتاح» وأم «نفرتوم» وتشكل معهما ثالوث «منف».

● Serqet (Selket) «سلكت»، إحدى الربات الحارسات لأحشاء المومياوات. ساعدت سلكت فى ولادة الآلهة والفراعنة. وهى أيضا ربة السحر. وتعرف بالعقرب الذى يعلو رأسها. ويترجم اسمها إلى «التى تحرر القصبة الهوائية» أو «من تسبب التنفس»، كما أنها توفر الحماية من لدغة العقرب المميتة، فتلدغ «سلكت» الأشرار، وتنقذ أولئك الأبرياء من الآثام الذين هاجمهم عقرب.

● Seshat «سيشات»، إلهة الكتابة، والحساب، والعمارة، وحفظ السجلات، والمقاييس. وتعرف بالثوب الضيق الذى ترتديه من جلد النمر، بالإضافة إلى النجمة السباعية أو الزهرة ذات السبع بتلات فوق رأسها. وهى زوجة «تحوت» ويترجم اسمها إلى «السيدة الكاتبة». وتقول الأسطورة أنها سجلت أسماء وأفعال الفراعنة على شجرة الحياة بغرض منحهم الخلود. وتحسب «سيشات» أيضا أيام الوجود الفانى للفرعون على الأرض، بتسجيل علامة مقابل كل عام من حياته على فرع النخل الذى تحمله.

● Set (Sutckh, Seth) «ست» الذى يصور فى هيئة رجل برأس كلب، أو خنزير، أو حمار، من أكثر الآلهة الذين أسىء فهمهم فى مصر القديمة. وهو شقيق «أوزيريس» و«إيزيس» وزوج «نبت ـ حت»، وكان فى الأصل مصدرا للخوف باعتباره

قاتل «أوزيريس». وصار إله الفوضى، والعواصف، والصحراء، والأجانب، فى الوجه البحرى. وكان محبوبا فى «جانيت» (تانيس) و«نوبت» (أومبوس)، كما صارالمعبود الأعلى للهكسوس. ويعرف أيضا باسما الإله الأحمر، حيث يصور غالبا بشعر أحمر (اللون الذى يمثل الشر، والحداد ومنطقة الصحراء فى الأرض الحمراء).

● Shu «شو»، إله الهواء والرياح، برأس الأسد، وله شقيقة توأم، هى «تفنوت». ويعتقد أن الاثنين أول المخلوقات البشرية التى خلقها «رع» وشبهها بنجمى برج «الجوزء». وغالبا ما يصور «شو» مرتديا ريشة فوق رأسه، وهو يسند «نوت» إلهة السماء. ويترجم اسمه إلى «جاف» أو «مجفف».

● Sobek (Sebek) «سوبك»، إله الخصوبة والمياه، برأس التمساح. وتشير النصوص الجنائزية إلى أن سوبك المسئول عن إعادة حاسة البصر إلى الميت. وهو ابن «نيت»، ومركز عبادته فى «بير سوبك» (بيت سوبك) أو «كروكوديل بوليس» بالنسبة للإغريق أى مدينة التمساح.

● Taueret (taweret,Thoucris) «تاوريت» إلهة الولادة والحياة العائلية، على هيئة فرس النهر. ويعتقد أن اسمها يترجم إلى «العظيمة» غير أن تحليل اسمها إلى «تا» (الأرض) و «أور» (عظيم) و«إت» (أداة تأنيث فى آخر الكلمة) ربما يشير إلى أن الاسم يعنى «هى من الأرض العظيمة».

● Tefnut «تفنوت» إلهة الرطوبة والمطر، برأس الأسد، توأم «شو» (الريح) وأم «نوت» (السماء) و «جب» (الجبال/ الأرض). وهى ابنة أخرى للإله «رع».

● Tehuti (Thoth, Djhuty) «تحوت»، الإله القمر برأس أبى قردان أو رأس القرد؛ إله الكتابة والحكمة والأدب. ويعرف أيضا باعتباره رسول الآلهة وكاتبهم. وكان مركز عبادته فى «پير ـ تحوت» (هرموبوليس، مدينة هرمس)(*). وفى الأساطير اليونانية، شبه بهرميس إله اليونان، وهو فى الأساطير الرومانية «عطارد»(**). وغالبا ما يشاهد «تحوت» حاملا قلما ولفافة من ورق البردى. وهو وزير «أوزيريس» ومبدع

(*) الأشمونين حاليا، وتبعد ٣٠٠ كم جنوب القاهرة ـ المترجمة.

(**) هيرميس هو رسول الآلهة عند اليونان القدماء وإله التجارة والصحافة والمكر. وكان كذلك «ميركيورى» أو عطارد عند الرومان القدماء ـ المترجمة.

الكتابة الهيروغليفية والتقويم. وباعتباره إله القمر، خلق أول تقويم يعتمد على أطوار القمر، وكانت مهمته تسجيل الوقت.

● Wadjet (Uadjet, Edjo, Buto)«واچت» الإلهة الكوبرا وزوجة «حابى»، حامية ملوك الوجه البحرى. وهى نظيرة «نخبت» وكل منهما تعرف بأنها «نبتى» (إحدى السيدتين). ويعنى اسم «واچت» «السيدة الخضراء»، وهى تسيطر على أراضى المستنقعات فى الوجه البحرى. وأطلق الإغريق على المنطقة والإلهة «بوتو».

* * *

ـ ١٥ ـ

أساطير الخلق

لدى المصريين عدة قصص لتفسير كيف بدأ العالم، كل منها تحدد مكانهم فى الكون. وتبدأ جميع هذه القصص بالكتلة المائية لبحر الظلام الساكن «نون». وآلهة الخلق الرئيسة هى «آمون ـ رع»، و «آتوم ـ رع»، و(رع ـ آتوم) «خنمو»، و «پتاح».

ووفقا لإحدى الأساطير، خلق «پتاح» إله الصناع البشر بكلماته وأفكاره. وتقول أسطورة بديلة أن «خنمو» صنع الإنسان من الطين، مستخدما دولابه الإلهى لتشكيل الفخار. وخلق أول إنسان مخلوق أول بيضة، ومنها خرجت الشمس، وتبعتها جميع أشكال الحياة. ووضع «خنمو» مثل هذا الدولاب (أو البيضة) داخل كل امرأة، حتى لا يصبح مسئولا بعد ذلك عن إعمار الأرض بالسكان. بينما يشير تفسير آخر إلى أن «خنمو» خلق «كا» أو قرناء كل إنسان على دولابه الفخارى.

وتنسب قصة أخرى، فى متون الأهرامات: إلى «الثامون» أو «مجموعة الثمانية» خلق البشر. وتكونت هذه المجموعة من أربعة أزواج من الآلهة الذكور والإناث، مجسدين القوى الأساس للطبيعة. «نو» و «نوت» خلقا السموات والمطر، بينما «حيحو» و«حنوت» خلقا النار. وينسب الظلام إلى «كيكوى» و«كيكويت». أما الليل والفوضى فشكلهما «كيرح» و«كيرحت». وتذكر مصادر أخرى أن الثامون تكون من أزواج الآلهة «أمون» و«أمنيت»، و «نون» و«نونت»، مع «حيحو» و«حيحت»، و«كيكوى» و «كيكويت».

ووفقا لإحدى الأساطير، افترق «شو» إله الهواء و «تفنوت» إلهة الرطوبة، عن «أتوم ـ رع»، الذى نزع عينه وأرسلها للعثور على طفليه. وعندما وجد التوأمان

طريقهما وعادا مع عينه، بكى «أتوم ـ رع» من الفرح، ومن تلك الدموع أو «ريميت»؛ ولد البشر أو «رمت» (بمعنى الإنسان). وتحكى رواية أخرى أن «جب»، «الصاخب العظيم» خلق العالم عندما وضع البيضة الكونية التى نبعت منها الحياة.

وفى «لونو» خلال أوائل عصر الأسرات، نشأ ما يعرف باسم «التاسوع» من تسعة آلهة. ووفقا للأسطورة، خلق «التاسوع» العالم، ولكن تحديد الآلهة الذين شكلوا هذا التاسوع مثار جدل. وأيا ما كانت القائمة الصحيحة، فهذه الآلهة جزء من أكثر أساطير الخليقة شعبية وقبولا:

ـ «رع ـ آتوم» (أو حورس طبقا للقائمة التى تبحثها).

ـ «شو» و «تفنوت».

ـ «جب» و «نوت».

ـ «أوزيريس» و «إيزيس».

ـ «ست» و «نبت ـ حت».

ولعل أكثر أساطير الخلق قبولا وانتشارا، التى تتصور الحياة باعتبارها انبعثت من زهرة لوتس عملاقة. وكانت اللوتس ترمز إلى البعث، حيث تجسد دورة الانبعاث المستمرة، عندما تفتح أوراقها وتغلقها كل يوم. ونمت هذه الزهرة المقدسة من تل صغير، يرتفع من بحر «نون» البدائى، المظلم، الساكن، الذى شمل جوهر الخلق بأكمله. وهذه الفكرة تتوازى مع فكرة ولادة مصر من الماء، مياه النيل. ومثلما تظهر آثار للأرض بعد أن تبدأ مياه النيل فى الانحسار، فالعالم نفسه بزغ من تل بدائى ظهر من المياه أو اللا تكون. واعتبر التل المقدس، المعروف باسم «بن ـ بن» هو البقعة الأولى، حيث لامست أشعة الشمس، للمرة الأولى، الأرض فى اللحظة المعروفة باسم «تيب ـ زيبى» ـ أولى لحظات الخلق. ومن هذا التل، ولد «أتوم». وكان «بن ـ بن» التل أصل الخلق، ومصدر الحياة كلها، الملهم لتصميم الأهرامات.

وتقول رواية أخرى، أن «رع» إله الشمس، بزغ من زهرة لوتس، أو بيضة كونية، ظهرت من التل الأولى. وبحلول عصر الأسرة الخامسة، توحد «أتوم» مع «رع» وعبد

فى هيئة مركبة «أتوم-رع». وخلق «رع» أو «أتوم-رع»، «شو» إله الهواء والرياح الذى بدأ ينتشر فى الدنيا. ثم خلق "تفنوت"، إلهة الرطوبة، والمطر، التى تساقطت على البشر. ونجم عن زواجهما «نوت» و «جب»، الذين شكلا السماء، والجبال، والأرض. وكان «نوت» و «جب» على علاقة حب قوية لدرجة دفعت «رع» لوضع «شو» (الهواء) بينهما حتى يتيح للبشر النمو والتكاثر. ويذكر تفسير آخر أن «شو» يرفع جسد «نوت» للحيلولة دون سقوط السماء. وكان يعتقد أن «نوت» تبتلع الشمس كل يوم عند الغسق، ثم تطلقها عند الفجر. وخلال ساعات الظلام، تنتقل الشمس عبر مركب «رع» الشمسى.

وكان رع بالغ الدهاء، فهو خالق الكون على أى حال. وحذرته بصيرته الذكية من أنه من الخطر أن ينجب أطفالا من «نوت»؛ فربما يخونه أحدهم وينهى حكمه لمصر. ومن ثم تلفظ «رع» بتعويذة لم تعد «نوت» بسببها قادرة على إنجاب أطفال فى أى يوم من أيام السنة المصرية. وذكرت مصادر أخرى، أن «رع» كان يغار للغاية من العلاقات بين «نوت» و «جب»، وفى لحظة غضب، ألقى لعنته على الإلهة التى كان مفتونا بها.

ودفع الحزن واليأس «نوت» إلى طلب العون من «تحوت». فاقترح «تحوت» الحكيم لعب النرد أو «سينيت» مع «خنسو». وراهن إله القمر «خنسو» بحصة من ضوئه، خسرها فى نهاية الأمر. وأخذ «تحوت» هذا الضوء لنفسه، وقام بتجميعه مشكلا خمسة أيام زائدة عن أيام السنة، ألحقت بنهاية التقويم. وعرفت هذه الأيام الخمسة المقدسة باسم «أيام النسيء». وفى أول هذه الأيام الخمسة، ولدت «نوت» «أوزيريس»، ثم أنجبت «حيرو-أور» فى اليوم الثانى، و "ست" فى الثالث، و «إيزيس» فى رابع أيام النسيء، ثم «نبت-حت» فى خامس هذه الأيام وآخرها. وأكملت هذه الآلهة الخمسة، مع «شو»، و "تفنوت"، و «جب»، و «نوت»، تاسوع الآلهة العظيمة فى «لونو» (عين شمس). ولما خسر «خنسو» جزءا من ضوئه، لم يعد قادرا على السطوع طوال الشهر، وبات على ضوئه أن يتناقص حتى يصل للعتمة الكاملة قبل أن يزيد مرة أخرى ليصل إلى كامل تألقه؛ وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرى أطوار القمر.

ولم تكن العلاقات داخل أسرة الآلهة بعيدة عن المتاعب. فأحبت «نبت ـ حت» «أوزيريس»، حتى أنها تنكرت فى هيئة «إيزيس» فى إحدى الليالى وذهبت للقائه؛ وتقول بعض المصادر أنها أسكرته بالنبيذ، حتى لم يعد قادرا على التفرقة بينها وبين زوجته «إيزيس». ومن هذه العلاقة ولد «أنوبيس»، «الطفل الملكى». وعلم «أوزيريس» شعب مصر قيمة القمح والشعير، وبين لهم كيفية صناعة واستخدام المعدات الزراعية. وأوضح للناس طريقة زراعة البذور، وإنماء المحاصيل، باستغلال فيضان النيل السنوى الذى يخلف وراءه طميا غنيا وخصبا ونموذجيا لإنماء الغذاء. وعلم «أوزيريس» و«إيزيس» الناس طريقة زراعة الكروم وإنتاج العنب، وتحويله إلى نبيذ. ومنحهم «أوزيريس» سبل بناء أمة متحضرة، بوضع دستور من القوانين، فى ظل «ماعت» يعيشون بمقتضاه. و بين لهم كيفية التعبير عن العرفان بعبادة الآلهة. فأحس الناس بالاطمئنان، وازدهرت مصر.

وكلما زاد تعلق الناس بأوزيريس وتبجيلهم إياه، استشاط أخوه «ست» غيرة منه وحنقا عليه. وربما انكشفت العلاقة التى وقعت بين «نبت ـ حت» و«أوزيريس» فأثارت تحوله المبكر ضده. وفى أثناء العام الثامن والعشرين من عهد «أوزيريس» سقط ضحية مؤامرة قتل أعدها «ست» و٧٢ متآمرا. فبينما كان «أوزيريس» يجول فى البلاد الأخرى لتعليم أهلها سبل الحياة الرغدة والمرضية، حلت «إيزيس» محله، الأمر الذى استطاعت القيام به بفعالية ونجاح. غير أن عجلة الخيانة فى خطة «ست» كانت تحركت بالفعل، وتوقعا منه لعودة «أوزيريس» إلى مصر، أعد «ست» وليمة ضخمة على شرف أخيه. وحصل «ست» سرا على مقاسات دقيقة لجسد «أوزيريس». ثم كلف أبرع الفنانين بإبداع أروع تابوت حجرى على الإطلاق ـ بنفس شكل وحجم جسد «أوزيريس» تماما. وصنع غطاء التابوت من أفخر أخشاب الأرز المستوردة من «بابيلوس» ورصع بالعاج النفيس والأبنوس من بلاد «بونت» وعندما عاد «أوزيريس» وأقيمت الوليمة، عرض التابوت الفخم كهدية للضيف الذى يناسب التابوت مقاسه. وإذا أخذنا فى الاعتبار تركيز الثقافة المصرية على أفخر مكملات الزينة الجنائزية، كانت هذه هدية قيمة بالفعل.

ولم يكن «أوزيريس» مدركا على الإطلاق للمؤامرة الشريرة، حيث لم يكن يسرى فى عروقه سوى الخير. وخلال الوليمة، رقد عدد قليل من الرجال الذين اختيروا بعناية داخل التابوت. أحدهم كان أطول كثيرا، والآخر كان أقصر كثيرا، والثالث كان أعرض كثيرا. ومن ثم اقترح أحدهم (كما هو مخطط) أن يأخذ الفرعون نفسه دوره داخل التابوت الرائع. ووافق «أوزيريس» بمرح، وسر تماما عندما أدرك أن الصندوق البديع يناسبه تماما. وهنا، أغلق التابوت بقوة، وسمر بإحكام، وختم بالرصاص المنصهر بواسطة الاثنين وسبعين متآمرا، الذين طرحوه بعد ذلك فى مياه النيل.

وعندما سمعت «إيزيس» بمصير زوجها، قصت خصلة من شعرها وارتدت ملابس الحداد. واشتد بها الحزن، فشرعت فى البحث عن صندوق الغدر الذى يحوى جسد زوجها؛ حيث تعلم أنه من دون الجسد لن يتسنى إجراء طقوس دفن سليمة تضمن له الخلود. وبالنسبة للمصريين القدماء، صارت دموع «إيزيس» التى سالت لأجل زوجها رمزا لفيضان النيل السنوى. وأخذت الزوجة تبحث بصورة محمومة عن زوجها، وتسأل كل من تلقاه فى طريقها. وكشف لها أطفال يلعبون على ضفة النيل أنهم شاهدوا خزانة فخمة طافية على مياه «وادج ـ ور» (الأخضر العظيم) أو البحر المتوسط. وشعرت «إيزيس» بالامتنان الشديد لهم، ومن ثم منحت من فورها أطفال مصر موهبة التنبؤ.

وطرحت الأمواج القوية التابوت على فروع شجرة «الطرفاء» الواقعة على سواحل «بابيلوس». وكانت الشجرة تطرح أوراقا ضخمة، كثيفة لدرجة أخفت الصندوق عن الأعين. غير أن هذه الشجرة غير العادية لفتت نظر «مالكاندر» ملك «بابيلوس» الذى أمر بقطعها وعمل عامود منها لتزيين قصره العظيم ـ جاهلا لحسن الحظ بما يرقد داخلها. وفى نفس الوقت، واصلت «إيزيس» بإلحاح سؤالها فى أنحاء البلاد. وفى نهاية الأمر، عرفت أن جسد زوجها محبوس داخل عامود شاهق فى قصر «مالكاندر». وأعدت «إيزيس»، التى لا تخشى شيئا، خطة لكسب ثقة بنات الملك، ومن ثم تجد طريقة لدخول القصر الملكى. فمشت إلى شاطئ البحر، وجلست لترتاح حيث يذهب بنات القصر للاستحمام يوميا. وعندما خرجت الفتيات الصغيرات من المياه، ظهرت لهن «إيزيس»، وعلمتهن كيف يجدلن شعرهن ونفخت أنفاسها عليهن

بأروع عطر ينبعث من زفيرها. وأمضت ملكة مصر المتنكرة والسيدات الصغيرات فترة بعد الظهر معا فى سرور. وعندما عادت الفتيات إلى القصر، شمت الملكة «عشتار» أريجهن، وأعجبت بأسلوب تصفيف شعرهن الجديد. وطلبت الملكة معرفة من أين جاءت هذه التحسينات، ثم أصرت على مقابلة السيدة الغامضة التى تحدثت عنها الفتيات بهذا القدر من الإعجاب. فأحضرت «إيزيس» إلى القصر، وسرعان ما اكتسبت ثقة الملكة «عشتار»، التى كلفتها بإرضاع ابنها، الأمير الصغير. وكان الطفل متوعك الصحة، فردت إليه «إيزيس» صحته بإرضاعه إصبعها.

وفى إحدى الليالى، اتخذت «إيزيس» هيئة طائر السنونو، وقررت أن تهب الطفل (الذى أصبحت مغرمة به) نعمة الحياة الخالدة. وبينما هى تستعد لإلقاء الطفل فى النار (حتى تتخلص من أجزائه الفانية)، أوقفتها الملكة "عشتار" التى كانت تقف على مقربة منها سرا. حيث قفزت الملكة، وأمسكت بابنها، فى الوقت المناسب لإبطال سحر التعويذة. وكشفت «إيزيس» عن هيئتها الحقيقية، وأبدت غضبها العنيف على الملكة التى حرمت الطفل من الخلود. فسقطت الملكة راكعة على ركبتيها، عندما أدركت أن المرضعة كانت فى الحقيقة ملكة مصر العظيمة. وكعرض للصلح، عرض ملك وملكة «بابيلوس»، على «إيزيس»، أغلى كنوز بلادهما، بيد أنها أجابتهما أن رغبتها الوحيدة هى العثور على جسد «أوزيريس»، وأنها علمت أنه مخبوء فى أحد الأعمدة الخشبية التى يقدرها الملك. ولبيت رغبتها فورا، وبعد أن حددت «إيزيس» العامود المرجح، شقته لتجد الصندوق النفيس. فألقت بنفسها عليه وأطلقت صرخة أسى مدوية، حتى أن أميرا صغيرا آخر، يقف إلى جوارها مات فزعا من هول الصوت. وأعادت إيزيس الصندوق إلى مصر.

وعندما بلغ «ست» أمر نجاحها، طار صوابه من الغيظ. وحدد موقع الصندوق، ثم قطع جسد «أوزيريس» إلى أربعة عشر جزءا، وألقاها إلى التماسيح فى النيل. بيد أن التماسيح لم تهاجم جسد «أوزيريس» ولا قارب البردى الذى حمل «إيزيس» وهى تعيد البحث عن زوجها؛ الأمر الذى تسبب فى تقديس التماسيح، رغم الخوف منها كما فى السابق، فى مصر القديمة. (وتشير رواية أخرى إلى أن التمساح حمل جسد «أوزيريس» على ظهره وأعاده سالما إلى الشاطئ).

وهكذا، عاودت «إيزيس» سؤالها المفعم بالأسى عن بقايا زوجها. ورغم أن «نبت-حت» كانت زوجة «ست»، إلا أنها بقيت مخلصة لكل من «أوزيريس» و «إيزيس» - ربما بدافع من الحب، أو الإحساس بالذنب بشأن ليلتها مع «أوزيريس» التى نتج عنها ولادة «أنوبيس». وبمعاونة «نبت-حت» و «أنوبيس» جمعت «إيزيس» باعتبارها سيدة السحر وإلهة الشفاء، قطع جسد زوجها، وغسلتها بطول ضفتى النيل، وأعادت تجميع الجسد. وحيثما عثرت على قطعة من جسد «أوزيريس»، كان يقام محراب لتقديسه، وهو السبب فى وجود العديد من مقابر «أوزيريس» فى أنحاء مصر. وتقول الأسطورة إن رأسه وجدت فى «أبيدچو» (أبيدوس) التى صارت مدينة الموتى المقدسة، وكرست لعبادة «أوزيريس». وقد عثر على جميع أجزاء جسده ما عدا العضو التناسلى، الذى اعتقد أن سمكة من أسماك النيل ابتلعته. ولهذا السبب اعتبر النيل بوجه خاص خصبا، ومانحا للحياة، بينما اعتبر الكثيرون السمك «غير نظيف» ومحرمًا أكله.

وأدى «أنوبيس» إله التحنيط، وحارس الجبانة، عملية التحنيط، والطقوس المطلوبة لإعادة «أوزيريس» للحياة. وأصبح «أوزيريس» أول مومياء، وصار الآن قادرا على التنقل عبر «دوات» إلى «أمنتى»، حيث أصبح ملك العالم السفلى. وصنعت «إيزيس» بمعاونة اختها «نبت-حت» بواسطة السحر بديلا للعضو المفقود، وبذلك حملت طفلا من «أوزيريس». وأطلق على الطفل اسم «حيرو-سا-أوست» وتولت والدته تربيته سرا من دون علم «ست».

وتزايدت قوة الطفل حتى أصبح قادرا على الانتقام لموت والده؛ وعند هذه اللحظة أصبح «حورس». ونشبت سلسلة من المعارك بين «حورس» و «ست» الذى اتخذ هيئة خنزير ضخم اسود اللون، ومنذ ذلك الحين، اعتبر الخنزير أيضا حيوانا «غير نظيف» واعتبر الكثيرون لحمه غير صالح للاستهلاك الآدمى. وخلال إحدى هذه المعارك ثار غضب «حورس» على والدته التى أصابته خطأ برمح بدلا من «ست». وتشير روايات أخرى إلى أن «إيزيس» أحست للحظة بالأسف لأخيها الذى كاد أن يهزم على يد ابنها، وفى لحظة غضب قطع «حورس» رأس «إيزيس» لذلك فقد سعت لأول رأس يمكنها العثور عليها، فكانت راس بقرة. وهكذا ولدت «حت-حيرو» الإلهة برأس البقرة، كأحد مظاهر «إيزيس». وأحيانا تقول القصة أن الشارة الملكية على تاج «إيزيس» -

وليس رأسها ـ هى التى أطاح بها «حورس» فى غضبه . ثم وضع «تحوت» مكان الشارة خوذة مصنوعة من رأس ، ثور ، فأصبحت «حت ـ حيرو» اللطيفة زوجة «حورس» . وسواء ولدت «حت ـ حيرو» من غضب «حورس» أو من سكينة «سخمت» ، فهذا أمر متروك للقارئ للنظر فيه واتخاذ قراره بشأنه .

وفى المعركة النهائية ، تنكر «ست» فى هيئة فرس نهر ضخم أحمر اللون . واتخذ «حورس» هيئة رجل عملاق مسلح برمح طوله ثلاثون قدما . وضرب «حورس» «ست» بالرمح منهيا حياته أخيرا . ويقال أن هذه كانت آخر معركة بين الخير والشر وقعت فى «بهديتى» (إدفو) ؛ حيث بنى معبدا ضخما لعبادة «حورس» . وأصبح «حورس» المنتقم العظيم ، وحامى الآلهة ، وسيد السماء ، والنهار ، والنظام . أما «ست» المهزوم ، فصار إله العواصف ، والصحراء ، والأجانب ، والارتباك ، والفوضى ، والليل . وتولى «أوزيريس» دور إله البعث ، وقاضى الموتى ، بينما ظل «أنوبيس» إله الحفظ والتحنيط ، وسيد الجبانة .

* * *

ـ ١٦ ـ

عبادة الحيوان

لعل من أكثر الجوانب سحرا فى الثقافة المصرية القديمة، تعدد الحيوانات التى تعبر وتجسد ضمن مجموعة الآلهة. فكل حيوان معروف تقريبا نال قداسة، ورؤى أنه يحمل روح أحد الأسلاف، وخصائص الإله الذى يجسده. وكان كل إله تقريبا يمثله ويجسده حيوان معين.

ومثلها مثل الفراعنة، اعتبرت حيوانات معينة وسيطة بين الإنسان والآلهة. وقدمت الهدايا للحيوانات باعتبارها تجسيدا للآلهة، فى مقابل الحصول على خدمة من الإله المطلوب. وأقيمت مدافن خاصة قاصرة على أنواع معينة منها، مثل جبانة الحيوانات فى سقارة. ومثلما حدث مع البشر، أجريت عمليات تحنيط أحيانا لحيوانات «ذهبت إلى الغرب» عندما اكتملت حياتها على الأرض. بيد أن حيوانات أخرى كانت حياتها تختصر، عندما تختار كقرابين أضاحى فى الاحتفالات الجنائزية.

وتمتعت الحيوانات المقدسة الحية بحياة الترف فى المعابد، حيث يعتنى بها الكهنة. وعلى سبيل المثال «حاب» (عجل أبيس)، كان يعرف بلونه. وعندما يموت واحد من هذه الحيوانات، يختار واحداً من نفس الفصيلة بدلا منه. فالعجل ينبغى أن يكون لونه أسود تماما، مع بقعة بيضاء على جبهته بشكل ثمرة اللوز. وتشمل العلامات الأخرى شكل صقر على ظهر الحيوان، وشكل خنفساء على لسانه، وذيل به شعرتان. وعندما يختار العجل الجديد، يعبد باعتباره «حاب» الجديد، عجل «منف» المعبود، وتجرى له طقوس إعداد مدتها ٤٠ يوما، لا يحضرها سوى النساء.

وتقول الأسطورة إن «حاب» حملت به بقرة عذراء أثناء عاصفة برق. ويجرى احتفال ضخم بميلاده، ويقام مهرجان فى اليوم السابع من ولادته. وعندما يتخطى «أبيس» سن الشباب (حوالى ٢٥ عاما)، يتم التضحية به، ويغمره الكهنة فى مياه النيل المقدسة. ويتبع ذلك إجراءات دفن فاخرة، ويقام الحداد لمدة ٧٠ يوما. وتجرى له نفس عملية التحنيط والطقوس التى تجرى لفرعون، كما يدفن وفقا لجميع الشروط المطلوبة للحياة الأخرى. وعندما يموت «أبيس» يصبح متوحدا مع «أوزيريس»، وخلال العصر البطلمى أدمج فى إله البعث وعبد باسم «أوزير- حاب»(او سيرابيس كما أسماه الإغريق). وهناك مقبرة واسعة تحت الأرض، مخصصة للعجول المحنطة. ويعرف هذا السرداب باسم «سيرابيوم سقارة».

واستخرج من السيرابيوم أربعة وعشرون تابوتا حجريا، تحوى عجولا من عصر الأسرة الثامنة عشرة. وصنع كل تابوت بإتقان من كتلة جرانيت واحدة، ويزن أكثر من ٨٠ طنا(*). وكانت أم عجل أبيس تقدس أيضا، وتدفن فى حجرات خاصة تقع شمال السيرابيوم. ومنذ الأسرة السادسة والعشرين على الأقل، كانت أم العجل تعتبر مقدسة، وتستحق حياة وموتا كريمين للغاية. وغالبا ما تقدم الثيران التى لا يحتوى جسدها على أى شعرة أو بقعة سوداء، كقرابين للعجل «حاب»، ومن بين العجول المقدسة الأخرى«مر ـ أور» (منفيس)الذى عبد فى «لونو»، و «باخا» (باخيس) الذى عبد فى «بير مونتو» (هرمونتيس).

وحظيت الأبقار، بسبب ارتباطها بالإلهة «حتحور» بإجلال بالغ، واعتبرت مقدسة. وعند موتها الطبيعى، تطرح هذه الحيوانات المقدسة فى مياه النيل المقدسة. أما لحوم الخنازير، والخنازير البرية فهى محرمة، ويثير هذا الحيوان الخوف فى أقاليم معينة من مصر. وتعرض الخنزير للكراهية بسبب ارتباطه بالإله «ست» غير المحبوب. وتشير الأسطورة إلى أن «ست» اتخذ هيئة خنزير أسود ضخم، وظهر هكذا لكل من «رع» و«حورس». وأطلق الخنزير سهما من النار إلى عين «حورس» اليسرى (القمر)، وأصابه بالعمى. واستدعى «تحوت» لعلاجه، وخلد هذا العمل رمزيا كل شهر بتألق القمر (علاج العين وعودة البصر إليها) وشحوبه (فقدان البصر). وألقى «رع» لعنة

(*) ورد فى معجم الحضارة المصرية القديمة (مرجع سابق) أن أثقل هذه التوابيت هو وحده الذى يزن ٨٠ طنا ـ المترجمة.

على الخنزير، وهكذا صار هناك حيوان واحد على الأقل غير مقدس. ويذكر مؤرخون أن أى مصرى يلامس ثوبه خنزيرا، كان يسارع بالنزول إلى النيل لتطهير نفسه. وهناك أيضا دلائل على أنهم كانوا يضحون بخنزير، باسم «حورس» عندما يكتمل البدر كل شهر.

وصور «أنوبيس» حامى الموتى وحارس الجبانة على هيئة ابن آوى. وكان هذا الحيوان بالتحديد يجول فى أفنية المقابر؛ ولهذا أصبح مرتبطا بالموت. وكانت الكلاب قريبة الصلة بابن آوى، وشاع اصطحابها للصيد، خصوصا النوع السلاقى. وكان المصريون يحتفظون بالكلاب باعتبارها حيوانات أليفة وفية وحراسا مخلصين. وعندما يموت أحدها، يحلق أفراد الأسرة شعر رؤوسهم وأجسادهم بالكامل. وغالبا ما تدفن الكلاب بجوار أصحابها. واعتبرت الكلاب مقدسة فى «كاسا» (سينوبوليس باليونانية أو مدينة الكلاب). وكان للكلاب أيضا علاقة خاصة مع «إيزيس»، التى توحدت مع «سوبديت» (سيريوس أو سوثيس، نجم الشعرى اليمانية) الذى جسد كونيا روحها. وصور «دواموتف» أحد أبناء حورس الأربعة برأس كلب أو ابن آوى.

ولدى المصريون القدماء سبب إضافى - عن بقية المجتمعات - للخوف من الذئب؛ وهو العدو اللدود للكبش، الحيوان المقدس رمز «آمون»، ملك الآلهة، و «خنمو» أحد آلهة الخلق. غير أن الذئاب عبدت فى «زواتى» (ليكوبوديس باليونانية - مدينة الذئاب)، ودفن العديد من مومياواتها فى مقابر بالجبال الواقعة فوق هذه المدينة.

وخاف المصريون الثعابين أيضا كما عبدوها ورمزت للخلود. حيث يشكل الثعبان دائرة ويعض ذيله، كما يجسد مفهوم البقاء، والتجدد والبعث عندما يطرح عنه جلده. وصورت عدة آلهة فى هيئة أفاع. كانت «مرستجر» و«واچت» إلهتين برأسى كوبرا(وأحيانا تمثلان على هيئة حية) وكذلك «حكا» و «ورت - حكاو» ومثل «ابوفيس» الثعبان الضخم، إله العالم السفلى، الذى جسد الظلام، والقوى البدائية للهيول. واعتبر «أبوفيس» عدوا بالغ الخطورة لكل من «باست» و «رع». أما «محن» فهو إله ثعبان يحمى «رع" من «أبوفيس» أثناء تنقله فى مركب الشمس عبر السماء كل ليلة.

أما الأرنب البرى فرمز إلى حدة الحساسية والوعى، ومن ثم صورت «ون نفر» أحد مظاهر «إيزيس» فى صورة أرنب برى.

وجسدت الزرافة - بسبب ارتفاعها وقدرتها على الرؤية من أعلى - المعرفة والقدرة على الاستبصار، ولم يكن الزراف من حيوانات البيئة المصرية وإنما استورد من النوبة.

واعتبر التمساح مقدسا لأنه يرمز للإله «سوبك»، بيد أن آخرين اصطادوا هذا الحيوان، من قبيل الرياضة. وكانت بلدة «بير سوبك» (بيت سوبك) التى تعرف أيضا باسم «شيت» (أو كوروكودايل بوليس) مركز عبادة هذا الزاحف المائى وعشر على العديد من التماسيح المحنطة هناك. وورد فى الوثائق أن التماسيح لقيت رعاية وحظيت بتقديس بالغ فى بحيرة «مويريس» وفى «أواست»، فقد أبى التمساح مهاجمة «إيزيس» عندما كانت تستقل قاربها البردى أثناء بحثها عن جسد «أوزيريس»، ولم ينس شعب مصر للتماسيح هذا الموقف. بينما اعتبر آخرون التمساح تجسيدا للشر باعتباره حليفا للإله «ست».

ورمز فرس النهر لخصوبة المرأة. وصورت الإلهتين «آبت» و«تاورت» التى عرفت بعد ذلك باسم «ريريت» فى هيئة أنثيى فرس النهر. أما «أمنتى» مفترس الأرواح فى مشهد المحاكمة، فهو ثلث فرس نهر. غير أن بعض المصريين اعتقدوا أن هذا الحيوان أيضا توحد مع ست، وامتلك بعض صفاته الشريرة. واصطاد البعض هذا الحيوان أيضا من باب الرياضة.

واعتبرت الضفادع مقدسة باعتبارها رمزا للإلهة «حقت» إلهة الخصوبة والولادة. كما عبدت الخنفساء باعتبارها تجسيدا للإلهة «سلكت» حامية المتوفى الملكى.

اللدغة

فى ليلة من الليالى، كانت «إيزيس» تسافر متنكرة مع ابنها «حيرو - سا - أوست» ورفاقه، العقارب السبعة. ولحاجتهم إلى مأوى لقضاء الليل، ذهبوا إلى بيت رجل نبيل. فخافت الزوجة من العقارب السبعة، وأغلقت الباب ما أن اقتربوا من منزلها. وشعرت إيزيس وابنها والعقارب بالغيظ، وقررت العقارب بوجه خاص الانتقام.

وفى نفس الوقت، فتحت فتاة فلاحة صغيرة باب بيتها المتواضع، ورحبت بإيزيس وصحبتها. وخلال الليل، انسل أحد العقارب خارج بيت الفتاة، واتجه إلى أرض المرأة الثرية، وتسلل داخل البيت حيث لدغ ابنها، ثم شرع فى إشعال النار بالبيت. وطافت

أم الطفل الشوارع تتوسل من أجل المساعدة و العلاج لابنها. وسمعت «إيزيس» صرخاتها التى تصم الآذان وشعرت بالأسى لحالها وحال ابنها البرىء؛ الذى لا ينبغى أن يدفع ثمن سلوك والدته الفظ. ولما كانت معرفة اسم شخص تتيح للمرء السيطرة عليه، فقد عرفت إيزيس أسماء العقارب السبعة. وأخذت الطفل بين ذراعيها ونطقت هذه الأسماء الواحد إثر الأخر، فذهب السم الذى عذب جسد الصغير. وصارت السيدة الثرية ممتنة، ومحرجة من عدم تقديم واجب الضيافة لإيزيس والعقارب. أما الفتاة الفلاحة فكوفئت بهدايا رائعة.

الطيور والنحل

تمتع النحل بقيمة رمزية فى الوجه القبلى، حيث رمز إلى دموع «رع». ولهذا السبب، اعتبر العسل طاهرا، كما اعتبر عنصرا ناجعا وفعالا فى السحر الطبى.

وحظيت الطيور بإجلال، واعتبرت أرواحا للآلهة. واعتبر أولئك الأكثر تصديقا للغيبيات؛ العصفور، ورؤية طائر ميت، نذير شؤم. بينما لقى الصقر (الذى عرف باسم «هيك») بتقديس بالغ بفضل علاقته بحورس. وكان الصقر عندما ينشر جناحيه، يعتبر عملا مقدسا من أعمال الصلاة، والهداية، والحماية. وصورت الروح «با» فى هيئة صقر برأس بشرى تحلق فوق جسد المومياء. وكان مركز عبادة الصقر فى «نخن» (هيراكونوبوليس باليونانية، ومعناها «مدينة الصقر»).

أما طائر الرخمة، وبسبب ارتباطه بالإلهة «نخت»، فقد حظى بتبجيل بالغ، خصوصا فى الوجه القبلى. وكانت الإلهتين «موت» و«نيت» تجسيدين للرخمة المقدس. كما عبد طائر «العنقاء»(*) كأحد مظاهر الشمس. وجسد «العنقاء»، الذى يخلق نفسه، البعث عند المصريين القدماء.

ورمز «أبو منجل» المقدس إلى الحكمة والتركيز الذهنى، ومن الأرجح أنه اختير لتمثيل الإله «تحوت» إله الكتابة، لأن منقاره يمثل ريشة كتابة تتجه إلى أسفل كما لو أنها بصدد الكتابة. واعتبر «أبو منجل» تجسيدا للإله «تحوت». وكانت الآلاف من هذا

(*) اعتقد قدماء المصريين أنه طائر يعمر خمسة أو ستة قرون، ثم يحرق نفسه، ومن رماده ينبعث ثانية فى قمة صباه وبهائه ـ المترجمة.

الطائر تربى حتى تحنط وتقدم كقرابين لهذا الإله، وقد عثر على أعداد محنطة منها فى «پير خنمو» (هرموبوليس أى مدينة هيرمس المقابل اليونانى لتحوت).

ونتيجة لطبيعة حب الاستطلاع عند القردة، ارتبط السعدان والقرد بتحوت أيضا، ورمزا للكفاءة العقلية. كما أن «أستن» أحد أشكال تحوت الذى اتخذ شكل سعدان. أما «حابى»، وهو أحد أبناء «حورس»، فقد صور برأس سعدان بينما يحرس رئتى المتوفى فى الجرار الكانوبية. وكانت هذه الحيوانات تربى، وتحظى برعاية فى المعابد، على شرف «تحوت». وربيت القردة غالبا باعتبارها حيوانات أليفة، ودربت على جمع الفاكهة من قمم الأشجار العالية، كما توضح اللوحات. ودربت القردة أيضا على حمل المشاعل فى الولائم، وكانت تصطف خارج البيت لتنير الطريق للضيوف المغادرين الحفل.

الرفاق من فصيلة القطط

حظى الأسد بالإعجاب لقوته وشجاعته. ويبدو أن الأسود صورت كحراس، مثلما يحرس «ابو الهول» العظيم، فى هيئة الأسد، أهرامات الجيزة. وغالبا ما وضع المصريون تماثيل أسود عند أبواب بيوتهم، وقصورهم، ومعابدهم لحراستهم من الشر. ولم تكن الأسود تصاد، ما لم تكن من بلاد أجنبية. وتفاخر «أمنمحتب الثالث» بأنه قتل ١٠٢ من الأسود فى سوريا بقوسه وسهامه فى غضون عشر سنوات. وغالبا ما صحب كل من «رعمسيس الثانى» و «رعمسيس الثالث» معه أسدا، سواء كان ذاهبا إلى معركة أو رحلة صيد. ويظهر مشهد لمعركة حربية، على الجدران الخارجية للمعبد الجنائزى لرعمسيس الثالث فى مدينة «هابو»، الفرعون يخوض هجوما فى عربته الحربية ويرافقه أسد شجاع. وتحرس الأسود أيضا الشمس مانحة الضياء، وفى الفلك تحكم الشمس برج الأسد.

وكان «سخمت»، و«شو»، و«تفنوت»، و«أكر»، و«نفرتوم»، و«منحيت» معبودات على هيئة الأسد. وتعتبر الأسود مقدسة فى «لونو» (هليوبوليس باليونانية بمعنى عين الشمس) لارتباطها بالشمس. ولقيت الأسود أيضا تقديسا بالغا فى «نای ـ تا ـ حوت» (ليونو توبوليس)، الواقعة على بعد عدة أميال جنوب «بير باست» (بوباستيس

بمعنى «بيت باستيت» بالمصرية و «مدينة باست» باليونانية) وهو مركز آخر لعبادة فصيلة القطط، التى ازدهرت جوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد.

وأغرم المصريون القدماء بالقطط (أو «ميو» كما أطلقوا عليها) التى اعتبروها أحب الحيوانات إليهم على الإطلاق، وقد استأنسوها منذ أكثر من أربعة آلاف عام. واعتبرت القطط مخلوقات روحية أكثر منها مجرد حيوانات أليفة أو صحبة مستأنسة. وعندما يموت قط الأسرة، يحلق كل فرد من أفراد هذه الأسرة حاجبيه (أو حاجبيها) علامة على الحداد. ويحنط جسد القط ثم ينقل إلى الجبانة فى «بير باست». ويمكن أن توقع عقوبة الإعدام على من يقتل قطا، حتى ولو على سبيل الخطأ. وغالبا ما تصحب القطط سادتها فى رحلات صيد الطيور (كما يظهر فى اللوحات الجنائزية). وحظيت القطط باحترام بالغ، ليس فقط لخفة حركتها وبراعتها فى مطاردة الفئران التى تدمر مخزون الحبوب، ولكن لكونها أعداء شجعان وبارعون لأبوفيس. فكانت «ريشت» إلهة على هيئة هرة، وتقول الأسطورة إن «مفديت»، الوشق(*)، تسلقت شجرة الأفوكادو فى «لونو»، وذبحت «أبوفيس»، وقد صور ذلك فى لوحات جنائزية. وفى بردية «هونيفر» تظهر «مفديت» وهى تشرع فى ذبح «أبوفيس» بسكين ضخمة. وكوفئت القطط بالغذاء، والمأوى، والحب فى مقابل صحبتها وخدماتها القيمة.

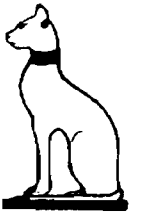

(*) حيوان من فصيلة القطط أصغر من النمر ـ المترجمة.

ـ ١٧ ـ

الـرمـزيـة

شهدت مصر طوال تاريخها استخدام مجسمات رمزية ثرية. وظهرت الصور الرمزية على البرديات، والنقوش الجنائزية، والتوابيت الحجرية، والحلى، والتمائم، والمسلات، وجدران المعابد والقصور. واستخدمت هذه الصور الرمزية لأغراض الزينة أيضا، غير أن مهمتها روحية بالأساس، ودينية وسحرية من حيث طبيعتها.

ويعتبر «عنخ» أكثر الرموز المصرية شعبية، وأقدمها، وأشهرها، وهو يمثل الحياة الأبدية، هدف المصريين من وجودهم كله. وتمثل الدائرة فى الرمز الشمس، بينما يمثل الصليب الأرض؛ وبارتباطهما يرمز «عنخ» إلى الاتحاد بين الإله والإنسان، والسماء والأرض. وغالبا ما يصور الإله «آتون» على هيئة شمس متوهجة ذات أشعة ممتدة تنتهى برموز الحياة «عنخ». وهذا التصوير بالتحديد رمزا لأن البشر تحوطهم أشعة آتون مانحة الحياة. وكان الملوك يرتدون «عنخ» التى تمد الفرعون بالحماية والحياة الأبدية. وصنعت المرايا، وهى تسمى أيضا «عنخ» على هيئة الرمز الذى حملت اسمه، غالبا. واعتبر المسيحيون الأوائل فى مصر «عنخ» صليبهم المقدس، الذى حل محله الأشكال المختلفة للصليب المسيحى المعروف حاليا.

وغالبا ما زين رمز العين اليسرى، علامة «حورس»، أو «واچت» مداخل المقابر، والتوابيت الحجرية، حتى تمكن المتوفى من النظر عبرها إلى الخارج. وأصبحت «واچت» رمزا قويا للعلاج، والكمال الأعلى، عندما المتوفون والأحياء كتميمة.

صورة عين حورس

أما العين اليمنى، فتعرف بأنها عين «رع» الشمسية. وتقول الأسطورة أن «رع» أرسل عينه اليمنى فى ظلام الأرض للبحث عن «شو» و «تفنوت». ولما أضاءت الظلمة، أصبحت العين الشمسية القوية لرع. وغالبا ما تظهر عينا «حورس» و«رع» معا، تحملان رسالة العلاج (عبر عين «حورس») والحماية (من الإلهة «سخمت» التى نجمت عن عين «رع» الشمسية).

ومثلت زهرة اللوتس (أو «سيشن» كما كانت تعرف) التجدد والبعث. وهى الزهرة الوحيدة التى اعتبرت مقدسة؛ فهى تخرج من تحت الماء وتتفتح تويجاتها مع شروق الشمس. وساد الاعتقاد أن «رع» لم يكن ليوجد من دون استنشاقه العبير اللطيف لزهرة اللوتس. ويبدو أن فراعنة معينين دفنوا مع تويجات اللوتس الزرقاء حتى يتمكنهم التمتع بالعبير إلى الأبد. وتقول روايات أخرى إن «نفرتوم»، إلهة العبير بهيئة زهرة اللوتس، قدمت هذه الزهرة إلى «رع» لتسكين آلامه وتخفيف متاعبه. واستخدمت رسومات زهرة اللوتس لزخرفة الكئوس، والقرميد، وأوانى الزهور، والحلى، والخزائن، والمعدات والمرايا الجنائزية؛ وتبدو بصورة واضحة فى العمارة المصرية، حيث زين هذا الرمز المعابد والقصور والأعمدة.

زهرة اللوتس

وكان نبات البردى ، شعار الوجه القبلى ، يرمز للعالم وهو ينشأ من المستنقعات البدائية . وتقول الأسطورة ، إن أعمدة شاهقة من البردى تحمل السماء . وفى «الكرنك» ، أقام «تحتمس» الثانى عامودا فخما مزخرفا بشعار اللوتس ، وآخر مزخرفا برمز البردى ، نحو ١٤٧٥ قبل الميلاد . وكثيرا ما تظهر فى الجداريات الأعمدة الفخمة يعلوها شكل نبات البردى كرموز للقدرة الكلية والقوة . واعتقد المصريون أن زهرة اللوتس عند ارتدائها كتميمة ، تضفى على مرتديها الشباب الخالد والبهجة الدائمة . ومثل شعار اللوتس والبردى متداخلان ، رمزا لتوحد أو لتعانق الأرضين ، الوجه القبلى والوجه البحرى . وكثيرا ما يظهر هذا الشعار ، المعروف باسم «سما توى» أو «تاوى» ، على المعابد ، والقصور ، والقوارب ، وكرسى العرش .

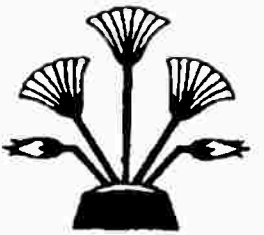

صورة اللوتس والبردى متداخلان

أما ثالث النباتات الرمزية فى مصر القديمة ، فهو نبات السعد ، «سوت» أو «نسوت» . فمنذ عصر الأسرة الأولى ، كان نبات السعد رمزا للوجه القبلى والملك . وأحيانا ما كان يظهر مع رمز نحلة أو «بيتى» ممثلا للوجه البحرى ، واندمج الاثنان فى واحد من ألقاب الفرعون ، يطلق عليه «حاكم الوجه القبلى والوجه البحرى» .

صورة نبات السعد

بينما مثل الرمز «شن» اللانهائية والأبدية ، لأنه ليس له بداية ولا نهاية . وجاءت كلمة «شن» من «شنو» (التى تحيط) . و«شن» هو أصل الخرطوش ، الإطار الحامى

البيضاوى الذى يحوط اسم الفرعون. (وكلمة «خرطوش» فرنسية أطلقها جنود نابليون على أظرف البارود التى يستخدمونها). وقد مدت الدائرة الكاملة لتناسب الاسم، وتمكن الروح من الحياة طالما لم ينقطع رسم الدائرة. وخلال عصر الدولة الحديثة، صممت التوابيت الحجرية الملكية على هيئة خرطوش حتى تحمى الجسد وتضمن له الخلود. وغالبا ما تظهر «الرخمة» المقدسة ممسكة «شن» بين مخالبها.

ومثل الرمز «سا» الحماية أثناء الولادة. وغالبا ما تصور الإلهة «تاورت» وهى تضع براثنها فوق هذا الرمز، حيث أنها إحدى الإلهات الحارسات أثناء الولادة.

و«أخت» رمز الأفق، حيث تظهر الشمس، وهى تشرق أو تغيب بين قمتى الجبلين. ومثل هذا الرمز أهمية كونية للمصريين القدماء. فقد صورت الشمس باعتبارها «الحارسة» التى تشرف على الجبال التى تحمل السموات. بينما كان الرمز أو الصورة الهيروغليفية التى تدل على الجبل أو «چو» عبارة عن نقش«أخت» من دون الدائرة التى تمثل الشمس.

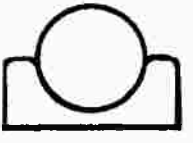

ويمثل «نوب» الكلمة والرمز الدال على «الذهب»، المعدن المقدس، لحم الآلهة. وهو يمثل الخلود، والملكية، كما يمثل الطاقة الشمسية.

ولما كان مفهوم البعث جوهر الديانة والمعتقدات المصرية، فقد جسدت عدة رموز فكرة النشور. ومن بين أشهر رموز البعث، التى تعود للدولة القديمة، خنفساء الجعران، التى عبدت باعتبارها «خيبيرا» وهو إله خالق لذاته، ويصور غالبا على هيئة إنسان برأس جعران. ولما لم يكتشف خبراء الحشرات المصريين القدماء بيض الجعران الذى يخرج من الأرض، فقد بدا أنه يوجد نفسه بنفسه فى هذا العالم، وهكذا جسد مفهوم التجدد الذاتى الدائم. وكان ميلاده أيضا رمزا لرحلة الشمس اليومية عبر السماء؛ حيث يدحرج الجعران كرات من الروث والطين ويتغذى عليها، وأصبح هذا السلوك رمزا «لتقلب الشمس اليومى فى السماء». وحتى اليوم، تعمد بعض النساء المصريات الراغبات فى إنجاب عدد كبير من الأبناء، إلى سحق الجعران وخلطه بالماء، واحتسائه كوصفة لزيادة الخصوبة.

رسم لجعران أسود

وصنع العديد من التمائم على هيئة أشكال مختلفة من الجعارين. وبحلول عصر الاضمحلال الأول، بدأت زخرفة السطح السفلى من الجعران أيضا. وكانت الجعارين متاحة للأغنياء والفقراء على حد سواء، حيث صارت تنتج بحجم كبير. وصنعت الجعارين، مثلها مثل معظم التمائم، من الأحجار شبه الكريمة، والأحجار الصلدة، والزجاج، والفخار المصقول، والحجر الجيرى. وخلال عصر الدولة الحديثة اشتد

الطلب على الجعارين المصنوعة من الخزف، وأدخلت فى تصميم الأساور، والقلائد، والخواتم، والعقود.

وصنعت جعارين ذات أجنحة بغرض تأمين سلامة المرور إلى العالم السفلى. وتهدف جعارين القلب إلى الحيلولة دون ظهور أى شر على السطح بينما يقف المتوفى أمام محكمة «أوزير». وغالبا ما تنقش تعاويذ للمساعدة فى جعل القلب صادقا عندما يوضع على الميزان مقابل ريشة «ماعت». واعتقدوا أن وضع تميمة على هيئة جعران فوق قلب المومياء، يضمن البعث والوجود الأبدى للمتوفى.

ونقش «أمنحوتب» الثالث الأخبار، والأحداث المهمة، ونقلها على السطح السفلى للجعران، مثل ذبح أكثر من مائة أسد خلال العشر سنوات الأولى من حكمه. ولم ينقش على تمائم الجعران انتصارات الفراعنة فحسب، وإنما أيضا إعلانات الزواج والاحتفالات. وبالإضافة إلى ذلك، نقشت على الأسطح السفلية من الجعارين السحرية الأمنيات أو التعاويذ. فعلى السطح السفلى لأحد الجعارين، مشهد لتحتمس الأول وهو يهزم «إيبيبى» حاكم الهكسوس خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة.

رسم لقرص الشمس المجنح

وغالبا ما ينقش قرص الشمس المجنح على مداخل المعابد. وعندما يوضع فوق اسم الفرعون فهو علامة على أنه منتصر. وتقول الأسطورة، إن «تحوت» حول «حورس» إلى قرص شمس بجناحين منبسطين، عندما أخضع النوبيين، وأشار «تحوت» على «حورس» بوضع أقراص شمس مجنحة فوق مدخل كل معبد فى مصر، لإحياء ذكرى هذا الحدث، ولتأمين الحماية من الأعداء.

وتمثل «تيت» أو «ربطة إيزيس» شكل «عنخ»، غير أن ذراعيها متدليتان لأسفل. وتسمى «تيت» أيضا «دم إيزيس» أو «زنار إيزيس». وتقول الأسطورة أن «إيزيس» أخفت «حورس» من «ست» بربط زنارها حوله، فغطى الطفل وحماه. وهكذا جسدت «تيت» الحماية، وارتديت كتميمة مصنوعة من الزجاج الأحمر، أو الأحجار مثل العقيق الأحمر أو الخلقدونى.

ويمثل «چد» العمود الفقرى لأوزيريس، ويرمز إلى الاستقرار والقوة. وترمز أذرع الصليب الأربعة إلى الاتجاهات الأصلية. وكتميمة، استخدمه الأحياء، كما وضع أيضا حول عنق المتوفى. وغالبا ما يصور «نيت» مع عامود «چد» رمزا للزوجين المقدسين، وقوتهما المجتمعة. وكان يعتقد أن «چد» يحتوى على خصائص حامية ومقوية. واعتبر أيضا رمزا لشجرة الطرفاء المقدسة التى احتوت وحمت الصندوق الذى ضم جسد «أوزيريس».

واعتبرت شجرة الطرفاء مقدسة تكريما لأوزيريس، واتسمت أشجار أخرى بأهمية رمزية، ومن ثم اكتسبت قداسة فى مصر القديمة. ورمزت شجرة الأفوكادو، بأوراقها السحرية للحماية والحياة الأخرى. ولقيت تقديسا بسبب ارتباطها بالإلهة «باست». وطبقا للأسطورة، أقامت «باست» فى شجرة الأفوكادو واسمها «إيشد» بالمصرية القديمة، عندما ذبحت الإله الثعبان العملاق «أبوفيس». وقد اعتقدوا أن الخلود يمنح للفرعون الذى ينقش «تحوت» أو «شيشات» اسمه على ورقة من أوراق هذه الشجرة المقدسة.

رسم الشجرة

ولقيت شجرة الجميز أيضا تبجيلا بالغا، باعتبار أن أرواح الراحلين تقيم فى هذه الشجرة وتسكنها. وكان الجميز الذى سمى «نحت» بالمصرية القديمة، يرمز إلى بيت «حتحور» التى عرفت أيضا باسم «سيدة الجميز». وتحكى أسطورة أخرى، كيف تختبئ «حتحور» داخل شجرة الجميز، وتقدم التغذية للراحلين، وتصب المياه من آنية للراحلين حديثا الذين يكونون مرتبكين، بينما تساعدهم على تسلق الدرج إلى السماء. وفى بردية«آنى» تظهر «حتحور» وهى تقدم الغذاء والشراب للمتوفى «آنى» من شجرة جميز. وقدست شجرة الجميز أيضا بسبب «نوت» إلهة السماء التى سكنت روحها «كا» هذه الشجرة.

ورمزت النخلة إلى الخصوبة، وارتبطت بمعبودات مثل «رع» و«نوت» و«حتحور».

وأحيطت الأسرة الملكية بالعديد من رموز الحماية، وكان المدراس اليدوى أو السوط، أداة لدرس القمح، ولكن عندما يقبض عليه الفرعون بيده اليسرى، يمثل خصوبة الأرض وازدهارها. أما عصا أو صولجان الراعى، فرمز القيادة والتوجيه والحماية لشعب الفرعون. وسمى الصولجان «حكا»، وعندما يمسكه الفرعون فى يده اليمنى، فهو تجسيد لفكرة الحكم. ولم يكن «حكا» قاصرا على الفراعنة والآلهة، وإنما انتقل إلى كبار المسئولين، والسحرة، والكهنة. واستخدمت فى السحر، لاستحضار طاقة وقوة الآلهة خلال الاحتفالات، والطقوس، والمهرجانات. بينما مثل وضع الصولجان والسوط متقاطعين على صدر الفرعون، استعراضا للملكية، والسلطة والتوجيه. ويشاهد «أوزيريس» غالبا فى هذا الوضع.

ويرمز الصولجان «واس» إلى سلطة الفرعون وهيمنته على الشعب. واعتقدوا أن عصا الصولجان «واس» ستمثل «ست» الذى تشبهه.

رسم لثلاثة تيجان

وكان تاج الفرعون أكثر رمز مرئى للملكية والسلطة. فقد تم تحديد ٢٠ تاجا ملكيا على الأقل ارتداها رجال ونساء وآلهة. وترتدى تيجان مختلفة فى مناسبات خاصة. وطليت التيجان بالذهب وزينت بالعقيق كما رصعت بالأحجار شبه الكريمة. ومثل التاج الطويل مخروطى الشكل (الذى عرف باسم هدجت الذى يعنى الأبيض) الهيمنة على الوجه القبلى. بينما مثل التاج الأحمر (وعرف باسم دشرت، بمعنى أحمر وصحراء) الوجه البحرى. وبالجمع بين هذين التاجين فى تاج واحد نتج «پشنت» أو «التاج المزدوج»، وارتداؤه يرمز إلى وحدة الوجهين القبلى والبحرى، والهيمنة عليهما. وكان «نعرمر» أول فرعون صور مرتديا «پشنت» حيث كان أول فرعون يوحد الأرضين عام ٣١٠٠ قبل الميلاد.

ويتكون التاج «آتف» من تاج الوجه القبلى «هدجت» ينتهى بقرص الشمس وريشة حمراء على كل من جانبى التاج. وصور «اوزيريس» كثيرا وهو يرتديه. وتمثل الريشتان مدينة «بير أوزير» المعروفة أيضا باسم «چدو» (أبوصير) حيث يقع مركز عبادته فى الدلتا.

رسم لتاجين

وعرف التاج «خبرش» بأنه «التاج الأزرق» و«تاج الحرب». وكان الفرعون يرتدى هذا التاج أثناء البعثات والحملات الحربية، والمناسبات الرسمية، ومواكب النصر. وصنع «خبرش» الأزرق من الإلكتروم(*)، وكثيرا ما يشاهد وهو يحمى رأس «رعمسيس» العظيم.

رسم لوجه فرعون يرتدى غطاء الرأس

أما «نيمس» فهو غطاء الرأس أو وشاح، مصنوع من الكتان المزخرف بشرائط باللونين الأزرق والذهبى. ويمكن التعرف عليه بشكل واضح عند مشاهدته على رأس «أبى الهول» وعلى التمثال النصفى الشهير للملك «توت عنخ آمون». وكان «نيمس» يحكم رباطه بشريط من الذهب يثبت خلف الأذنين، وغالبا ما يزخرف برمز «أوراكوس» فوق الجبين.

وعندما تظهر الكوبرا المقدسة أو «أوراكوس» الملكية فى وضع الانتصاب وترتدى فوق الجبين، فإنها تدل على الحماية من كل شر. وتقول الأسطورة أن «أوراكوس» توفر الحماية من الأعداء وتدمرهم بالنار التى تنفثها. ورمزت الكوبرا للحكمة، والسلطة، والملكية، والقداسة.

ومثلت «أوراكوس» أيضا رأس الثعبان للإلهة الأفعى «وادچت» فى الوجه القبلى. وكثيرا ما استخدمت «أوراكوس» مع «الرخمة» رمزا لإلهة الوجه البحرى «نخبت»؛ وجسدتا معا «السيدتين» ومنحتا الحماية لمرتديهما. وكان الثعبان رمزا واضحا للملكية والتجدد، لأنه يسقط جلده ويجدده ذاتيا.

وفى الأساطير اليونانية الرومانية، ألقى الإله «هرمس» أو عطارد (تحوت) صولجانه الملكى فى وجه ثعبانين متقاتلين؛ فتوقفا فورا عن القتال ولفا نفسيهما حول

(*) مزيج طبيعى من الذهب والفضة معا ـ المترجمة.

الصولجان، رمزا للتصالح. وصار صولجان «هرمس» أو «عطارد» شعار مهنة الطب، الذى يتكون من ثعبانين يلتفان حول صولجان ويعلوهما جناحان.

وتدل اللحية المزيفة، التى يرتديها الفراعنة والآلهة فقط، على الحيوية، والملكية، والقوة، والخواص الكونية. وتشير لحية الفرعون إلى أنه ليس من هذا العالم، ويختلف طول اللحية طبقا لمستوى قوة الفرعون. ووضع على القناع الجنائزى الملكى الفخم للملك «توت عنخ آمون»، كل من: غطاء الرأس «نيمس» المقلم بالأزرق والذهبى، واللحية الملكية الزائفة، و«أوراكوس» المنتصبة، و«الرخمة» الحارسة فوق الجبين.

وتنقل الألوان معانى رمزية أيضا، فتتيح المزيد من المفاتيح التى تساعدنا على تفسير اللوحات: فالأخضر يمثل الحياة النباتية، والبعث، والنماء، والصحة والفرح ـ وغالبا ما يصور «أوزيريس» باللون الأخضر، حيث كان فى الأصل إلها للنبات فى الأرض، قبل أن يموت ويعود للحياة كإله للموتى. والأسود لون الموت والعالم السفلى. وكثيرا ما يصور «أوزيريس» و «أنوبيس» باللون الأسود بسبب ارتباطاتهما بالأحداث الجنائزية. ويرمز اللون الأحمر للنصر، والحيوية، والحياة، والغضب، والنار، والحداد. وكان يعتقد أن «ست» كان له شعر أحمر، وعينان حمراوان؛ ومن ثم أصبح الأحمر لونا يرتبط بالشر والصحراء المخيفة. وعبر اللون الأبيض عن الطهارة، كما هو الحال اليوم، والقدرة الكلية والنقاء. بينما رمز الأزرق إلى الروحانية الكونية، والإله الذى يصور باللون الأزرق إنما يستعرض خواصه الإلهية؛ وغالبا ما ترسم صور الكهنة باللون الأزرق. وحظى الذهب بتقدير خاص باعتباره لون الشمس المانحة للحياة الأبدية، ورمز جسد رع.

* * *

ـ ١٨ ـ

الكـهنة

قامت الحضارة المصرية القديمة بالكامل على الدين، الذى نجمت عنه القوانين والمعتقدات. وخاض المرشحون لوظيفة الكهنة تدريبا شاقا ونظاما صارما حتى يصبحوا «خدم الآلهة». ويختار الفرعون الكهنة فى سن مبكرة من أفضل الأسر حصريا. وفى الواقع، ورث معظم الكهنة وظائفهم عن آبائهم. وكانت مهمة الكاهن أن يكون عليما بكل أمور الدين، وان يحافظ على حسن سير الأمور فى المعبد. وكانت هذه الأماكن المقدسة لعبادة الآلهة تسمى «پير عنخ» (بيت الحياة).

وعرفت مصر ثلاثة مراكز دينية، فى منف، وطيبة، ولونو. وهذه المراكز بيوت الآلهة الخالقة الثلاث «پتاح» و «آمون» و «رع». وكل مدينة تحوى معبدا للإله المعين الذى يعبد فى هذا الإقليم. وأحيطت هذه المعابد بجدران عالية، حيث كانت بيوت الآلهة. ولم يكن مسموحا إلا بدخول قلة من الرجال إلى هذه المعابد، لذلك أعدت فتحات فى الجدران للسماح بالاتصال بين الرجال المقدسين والمتعبدين من العامة. وعند الجدران الخارجية للمعابد، خصصت أماكن معينة تتيح للمتعبد العادى أن يهمس بصلاته، أو أمنيته، أو طلبه فى تصوير على هيئة أذن. وكانت هذه الأذن ترمز للقدرة البالغة للإله الذى يستمع. وهناك وسيلة أخرى، وهى أن يكتب المرء دعاءه على ورقة بردى، ويتركها للآلهة. ويتلقى الكهنة الدعاء، ويرفعون الأمر إلى عناية المعبود.

ولم يكن يسمح للعامة ـ فيما عدا المكفوفين ـ بالدخول إلى المعابد، فلا يجوز للبشر العاديين رؤية الآلهة. غير أنه كانت هناك «معابد النوم»، حيث يسمح للعابدين بقضاء

الليل والتضرع من أجل الشفاء من علة، أو حل مشكلة. وفيما عدا ذلك، لا يتاح للناس العاديين الاقتراب من الآلهة إلا عبر مقاصير مقدسة تقام فى بيوتهم، وخلال المواكب فى المهرجانات الدينية، من على تخوم الساحة المقدسة. وخلال هذه المهرجانات، تحمل التماثيل المقدسة فى مقاصيرها، خارج أرض المعبد حتى يتمكن الآلهة - عبر تماثيلهم - من الاتصال بالناس.

وتوضع المقصورة وتسمى «ناوس» - فى أبعد حجرة داخلية فى المعبد، وهى بيت التمثال الحجرى أو الخشبى أو الذهبى للإله، الذى يحوى «كا» المعبود. وكانت المقصورة أقدس مكان فى المعبد، حيث لا يسمح بدخولها إلا للكهنة الذين يحملون أعلى المراتب الكهنوتية. وتسمى الحجرة المحكمة الغلق التى تحوى التمثال الحجرى أو الخشبى للفرعون أو المعبود «السرداب». وغالبا ما توضع نافذة تتكون من ثقبين صغيرين عند مستوى العين، لتمكن - رمزيا - المتوفى من مشاهدة الشعائر التى تؤدى والقرابين التى تتلقى.

ويقيم الكهنة سلسلة من الاحتفالات التى تركز على إضفاء جوهر القدسية على المعبد. وكانت هناك ثلاثة طقوس يومية، الأول يؤدى عند الفجر، ويعرف باسم «احتفال الإيقاظ»، عندما يجذب الكاهن الأكبر المزاليج، ويحطم ختم الطمى الملكى الموضوع على الأبواب المزدوجة للحرم المقدس. ويرفع الكاهن الأكبر التمثال من المقصورة، ويتولى تنظيف «كا» المعبود، وإلباسها ثيابها، ومسحها بالزيت، والعناية بطهارتها، وتغذيتها، وتزيينها - وهو نفس الطقس الذى يؤديه الفرعون كل صباح - وبمجرد الانتهاء من هذه العمل، يرحل الكاهن الأعلى ماشيا للخلف، حتى لا يدير ظهره للآلهة، بينما يمسح الأرضية من أى أثر للتراب تخلف عن خطوات أقدامه عند دخوله. والطقس التالى يؤدى عند الظهر، أما الأخير فيؤدى أثناء الغروب. ويبقى التمثال داخل «الناوس» الخاص به خلال الاحتفالين الأخيرين، مع حرق البخور وتلاوة الصلوات. وفى المساء، يحكم إغلاق المقصورة مرة أخرى. وطوال النهار والليل، تتلى الصلوات وتنشد التراتيل، ويحرق البخور على شرف الآلهة.

ولم تكن الرائحة الذكية الناجمة عن حرق البخور، التى عرفت باسم «عطر الآلهة» تهدف لإرضاء المعبودات فحسب، وإنما اعتبر أيضا أنها تساعد المتعبد للوصول إلى حالة الانسجام مع القوى العليا، وتحدث نشاطا روحيا قويا. وكان البخور أو «سنتجر»

جزءا أساسيا من الشعائر الدينية، حتى أن أشجار الراتنج كانت تزرع داخل أراضى المعبد، مما ييسر الحصول على المادة الأساسية المطلوبة لعمل البخور، فضلا عن تطهير الجو. وكانت أفضل الخلاصات العطرية (مثل المر واللبان) تستخلص من صمغ الراتنج المأخوذ من الأشجار المستوردة من «أرض البخور» بونت. وكان «كابت» (كيفى) من أكثر عطور المعابد شيوعا. وعلى جدران «المعبد الكبير» لعبادة آمون، الذى يعود تاريخه إلى الأسرة التاسعة عشرة، صور «رعمسيس الثانى» وهو يحرق البخور، كقربان لمركب «آمون» بينما يحملها موكب الكهنة.

وشملت القرابين الفواكه التى توضع فى سلال أو صوان، والمشروبات مثل الماء، والحليب، والجعة، والنبيذ. وأقيمت صوامع الغلال فى حرم المعابد، لإمداد معامل الجعة والمخابز التابعة لهذه المعابد بما تحتاجه. ويتولى الكاهن الأعلى الإشراف على ثروات وصوامع المعابد. وبعد أن يتناول الآلهة الجوهر الروحى للغذاء، يستهلك الكهنة وموظفو المعبد ما يتبقى. وعرف هذا العمل باسم «رد القرابين».

وتتضمن المواد التى تقدم للمعبودات المعادن النفيسة، والمشغولات الفنية، والزيوت، والنباتات، وباقات الزهور. وكثيرا ما توضع الزهور فوق الهيكل المقدس كقرابين، أو تستخدم لتتويج رؤوس التماثيل. أما الحلى، التى يبدو أنها فى العديد من الحالات غنائم سلبت من أراض أخرى، فتودع لدى الكهنة لتقديم القرابين للآلهة.

واستخدمت المعابد أيضا كورش عمل، ومكان لحفظ السجلات، ومراكز إدارية، ومكتبات، ومراكز تأهيل للمسئولين الحكوميين، والأطباء، والكتبة. وتولت الدولة إدارة المعابد الأكثر أهمية والأضخم، ويتلقى الكهنة السلع والإمدادات من الحكومة. ويتولى كهنة المعبد تسجيل كل ما يحدث فى المعبد أو ما يتصل به. ويتولى صيانة وإدارة المعبد، العديد من الأفراد ذوى المهن المختلفة. تتضمن العمالة داخل مراكز العبادة مزارعين، وبستانية، وعمال محاجر، ورسامين، ونجارين، وطهاة، وجزارين، ونساجين، وصناعا، وحرفيين.

وأقام الفراعنة مقاصير فى مقابرهم الملكية، حيث توضع تماثيلهم فى مقصورة حجرة الدفن. وتحتوى المعابد الدينية تمثال الإله الذى يعبده أهل المدينة. وفى مقابر الأثرياء «تخلد» صورة المصرى المتوفى فى تمثال.

وتنقسم طبقة الكهنة إلى عدة مستويات. وعرف الكهنة باسم «حم نيترو» (خدم الآلهة). ولم تكن مهمة الكاهن فى مصر القديمة هداية الناس باسم الآلهة، ولا تقديم المشورة، أو العناية بالخير المعنوى للمواطنين؛ ولكن تمثلت مهمته فى العناية بالمعبود، باعتبار الكاهن «خادما للآلهة». وكان الـ" شمو» تابعين لخدم الآلهة «حم نيترو»، وتكونت هذه الجماعة من عباد مكرسين لخدمة المعبد وأعضاء جدد فى الكهنوت. ويترك الـ «شمو» القرابين ليدخلها الكهنة إلى المعبد، حيث لم يكن مسموحا لهم بالدخول لما بعد الفناء الخارجى للمعبد؛ الأمر الذى كان قاصرا على الكهنة الذين خضعوا لسنوات من التدريب. وعرف النظام الأكثر شيوعا بين الكهنة باسم «أواب» أو «واب» (بمعنى «المطهرون»). وعمل هؤلاء الرجال المقدسون فى المعابد الصغيرة، مقابل المعابد الكبيرة مثل معابد «الكرنك» و«أبى سمبل» و«دندرة». وتحتوى المعابد على أفنية خارجية حيث يمكن ترك القرابين المطلوبة، وحيث توجد بركة صغيرة متاحة لطقس الطهارة، الذى كان ضروريا لأداء المهمات المقدسة للكاهن من «أواب». وتولى هؤلاء الرجال مسئولية طهارة وتنظيف التماثيل، وممتلكات المعبد، والقرابين. ويتعين تطهير كل ما يقف أمام صورة المعبود، الممثلة فى التمثال، بالنطرون والماء والبخور. وأطلق على الكاهن الضليع فى فنون السحر لقب «هيرى سيشتا»، بمعنى «العارف بالأمور».

وهناك مستوى آخر ضمن مستويات الكهنة، هو كهنة «سيم»، المكرسون لأداء مراسم الدفن. وهؤلاء يحملون اللقب المبجل « الرسول الأول للإله»، ويقدمون الأضاحى والشراب فى المعابد. والكاهن من فئة «سيم» يكون رجلا حكيما كبيرا فى السن، يعينه الفرعون عادة. وفى حالات أخرى، ربما يمر عبر صفوف الكهنة بمجهوده الخاص حتى يصل إلى هذا المنصب المحترم. ويعرف الكاهن «سيم» من جلد النمر أو الأسد الذى يلفه حول ثوبه الأبيض المصنوع من الكتان.

أما «خر ـ حب» فهو لقب يمنح للكاهن القارئ، الذى يتلو نصوص الشعائر، واللفائف المقدسة فى الاحتفالات الدينية، وعلى رأس المواكب الكهنوتية. بينما «سونو» هم الكهنة الذين يمارسون سحر الحماية من الأذى. وتضم طبقة الكهنة موسيقيين، ومعلمين، ونحاتين، ومختصين بالتحنيط، وأطباء ومفسرى أحلام.

واعتبر كهنة «أواست»(*) بوجه خاص حكماء، وكانت مشورتهم تطلب فى الأمور المتعلقة بالغيب. وتخصص بعض الكهنة فى علم الفلك، الذى استخدم لقياس الوقت، وتحركات الكواكب، والأبراج. وكانت هذه المهمة ضرورية فى أمور مثل الزراعة، والعمارة، والطب، وإعداد التقويم، وتنظيم المهرجانات، وحساب فيضان النيل السنوى.

وعملت نساء من أسر النبلاء ككاهنات، (عرفن باسم حمت ـ نتر، ومعناها «زوجة الإله») وهناك دلائل على أن النساء شكلن جزءا من طبقة الكهنة المصرية منذ عصر الدولة القديمة. ويرى بعض علماء المصريات أنهن مارسن هذه المهنة منذ عصر الأسرة الثالثة والعشرين. وكانت الكاهنات مساويات تقريبا لزملائهن الرجال من حيث العدد والمكانة. غير أن هذا الرأى مستبعد، حيث يبدو أن دورهن اقتصر خلال عصر الدولة الوسطى على دور الراقصة، والمغنية، والموسيقية فى المعبد، مثلما صورت هؤلاء النساء فى اللوحات الجنائزية البارزة. وعرفت الكاهنة التى تمتلك قوى الوسيط الروحى باسم «رع خت». وعملت بعض الكاهنات راقصات أيضا، ومغنيات، وموسيقيات، بما فى ذلك العازفات على الصلاصل، اللاتى يؤدين فنونهن من أجل الآلهة. وفى المناسبات الخاصة تعزف الطبول، والصنج، والجنك، والناى، حيث كان يعتقد أن هذه الآلات الموسيقية تسر الآلهة.

رسم للمصلصلة

و«المصلصلة» أو«سيشت» تعزف عليها نساء من الفئة العليا خلال الاحتفالات الدينية وطقوس المعابد، وكانت مخصصة للإلهات: «إيزيس» و «حتحيرو» و«باست»، وهى المعبودات المرتبطة بالرقص والموسيقى والفرح والاحتفال. واعتبر العزف على المصلصلات امتيازا. وصنعت المصلصلة من إطار خشبى أو معدنى، مزود بقضبان معدنية متحركة وأقراص. وعند هزها باليد اليمنى تحدث صوتا مجلجلا ومقعقعا. واعتبر الصوت الذى تحدثه المصلصلة يهدف لاسترضاء للآلهة، وطرد القوى الشريرة.

(*) «طيبة» كما ذكرت المؤلفة سابقا ـ المترجمة.

وكانت آلهة المصريين آلهة راقصة، واعتبر الرقص من أجل الآلهة فى المعابد أثناء المهرجانات والشعائر المقدسة، شرفا عظيما وامتيازا. وغالبا ما يعبر الكهنة عن تناغم الكون عبر رقصة مقدسة تمجد مجموعات النجوم. ويتدرب الراقصون الدينيون فى مدارس المعابد، على أيدى الكهنة الذين يدرسون أيضا الغناء والموسيقى. وكان للموسيقيين إلههم الخاص، المعروف باسم «إيحى» «عازف المصلصلة».

وغالبا ما ينشد الكهنة ترانيم للآلهة، تتكون إحداها، بوجه خاص، من أصوات الحروف السبع المتحركة. حيث اعتقد أن أصوات هذه الحروف تحوز أسرار الكون، ومن ثم حذفت من النقوش الفرعونية.

وبوجه عام ارتدى الكهنة ثوبا طويلا بسيطا يلف عبر الذراع اليسرى. ومن الضرورى أن يكون لباس الكاهن من أنقى وأنصع أنواع الكتان فضلا عن كونه أنيقا نظيفا بلا أى شائبة. ولا يعقل أن يقترب كاهن من إلهه قبل أن يخلص جسده من الشعر والنجاسات. ولهذا السبب يستحم الكهنة عدة مرات فى ماء النيل البارد المطهر، أو فى البحيرات والبرك المقدسة المحيطة بحرم المعبد. ويحلق الكهنة أجسادهم بالكامل كل ثلاثة أيام، ويحظر تماما على الكهنة ارتداء الملابس المصنوعة من الصوف والجلد، حيث لا يجب أن يلمس أى جلد لحيوان بشرة الكاهن الطاهرة والمقدسة. بيد أنه يمكن ارتداؤه كطبقة عليا أو خارجية مثلما يلف جلد النمر على كتف الكاهن من فئة «سيم». وفى «أواست» ـ مركز عبادة آمون ـ التى كان الكبش حيوانها المقدس، حظر ارتداء الصوف كليا. وعلى تابوت حجرى مزخرف بدقة يعود إلى الكاهن الأكبر لعبادة «آمون ـ رع» فى عصر الأسرة الثانية والعشرين، واسمه «باخن موت» (خادم موت)، صور الكاهن مرتديا مخروطا معطرا فوق رأسه، ومعطفا من جلد النمر مطروحا دون إحكام على ثوبه الكتانى الأبيض، بينما يقدم القرابين من الخبز، والجعة، والثيران والطيور للإله «آمون ـ رع».

ويصوم الكهنة لمدة تتراوح بين سبعة إلى ٤٢ يوما، وكثيرا ما يصومون مدة أطول. وعندما يأكلون، يتكون غذاؤهم من طعام بسيط بكميات قليلة. ولم يكن مسموحا بالإفراط من أى نوع بين الكهنة، خصوصا فى الطعام أو الشراب. واعتبر لحم السمك والضأن والخنزير غير نظيف، ومن ثم حذف من غذاء الكهنة.

وباستثناء الكاهن الأكبر، كان الكهنة والكاهنات يخدمون المعبد ثلاثة شهور فقط فى العام، وفقا لنظام التناوب، ويعيشون داخل المعبد خلال فترة أداء خدمتهم الكهنوتية. وفى بقية العام يعيشون حياة عادية، يعملون فى مهنهم بينما يرعون أسرهم ويعتنون بها. ويعمل بعض خدم الإله وفقا لجدول دورى، حيث يكرسون أسبوعا من كل شهر للمعبد. وحتى من يتولون منصب الكاهن الأكبر لهم أسر خارج المعبد.

وينبغى على العاملين فى الخدمة الدينية الامتناع عن النشاط الجنسى وأطعمة معينة قبل أن يعودوا إلى الرحاب المقدسة. ويتمتع الكهنة بمزايا معينة، مثل استثنائهم من دفع الضرائب، وتغطية نفقاتهم الضرورية؛ مثل الغذاء، والمأوى، والملابس. ويحصل الكهنة أيضا على مخصصات حكومية من القمح والذرة وغيرها من المؤن.

واعتمد سكان مصر القديمة على الكهنة للدفاع عن قوانين «ماعت» والحفاظ عليها، ومن ثم أسبغوا عليهم درجة عالية من الهيبة والامتياز. وبحلول عصر الأسرة الثامنة عشرة، بلغ الكهنة مكانة تساوى تقريبا مكانة الفرعون، حيث أصبحوا يشكلون أقوى وأغنى طبقة فى المجتمع.

إصلاح مبكر

أدى هذا الإصلاح إلى الإطاحة بكهنة آمون وغيره من الآلهة بواسطة «أمنحتب الرابع» (أخن آتون). وفرض «أخن آتون» ما اعتقد أنه ديانة جديدة أفضل، تحت عبادة إله الشمس «آتون». وحتى ذلك الحين، كان «آتون» معبودا ثانويا، يعبد قرب منطقة «لونو» خلال عصر الدولة الوسطى. وكان «أمنحتب الثالث» والد «أخن آتون» بنى فى عهده، معابد لآلهة من بينها «آتون» فى «منف» و «أواست». ويبدو أن فكرة عبادة «آتون» انتقلت إلى ابنه وخليفته.

وفى أول الأمر، عبد «أمنحتب الرابع» الإله «آمون» من باب الواجب، بينما عبد «آتون» سرا، ولكن مع مرور الوقت، أزيل اسم «آمون» من النقوش، وأغلقت جميع المعابد الأخرى، وأصبح «آتون» الإله القومى لمصر. وكان نزوع «أخن آتون» نحو ديانة توحيدية أكثر روحانية ومثالية من النظام السابق، الذى يسيطر فيه العديد من الآلهة والكهنة على أرض مصر وشعبها. ولم يكن من الممكن أن يندمج «آتون» مع أى إله

آخر، مثلما اتحد «آمون» مع «رع». فكان «آتون» الإله الوحيد فى عقل «أخن آتون» المثالى والمحب للغير.

وكسب «أخن آتون» تابعين أقوياء، كما خلق العديد من الأعداء؛ فإلهه كونى، لا يغطى فقط وادى النيل، وإنما البشرية جمعاء. بيد أن التغيير كان عنيفا للغاية بالنسبة للناس، وبعد موته ذهبت ديانته معه. وأعيدت الآلهة القديمة باسم الفرعون الصغير «توت عنخ آمون». واعتبر «أخن آتون» مهرطقا وداعية للاعنف معا، كما اعتبر أول ثورى عرف فى التاريخ.

* * *

ـ ١٩ ـ

الأعـياد

قام الكهنة الذين وضعوا التقويم للمصريين بعمل طيب، حيث وزعوا الأعياد أو «حب» على مدار السنة. وتشير تقديرات إلى أن الاحتفالات كانت تستغرق نحو الثلث من العام. وليس هناك شعبا آخر استمتع أكثر من المصريين بالاحتفالات والمهرجانات الدينية.

فكانت هناك احتفالات بحياة وموت الأقارب، ومهرجانات على شرف المعبودات القومية. وخلال عصر الدولة الحديثة، كانت الاحتفالات والمهرجانات تعد غالبا لتخليد عودة الجيش المنتصر المظفرة من الخارج. واحتفل بأعياد ميلاد الفراعنة واعتبرت عطلات مقدسة، لا يمارس فيها أى عمل. حيث تغلق جميع الدوائر الحكومية مؤقتا باسم الفرعون؛ وعند نهاية العام، كانت أيام النسيء الخمسة فترة ولائم واحتفالات عظيمة، احتفالا بتواريخ ميلاد الآلهة «أوزيريس» و«حيرو ـ أور» و «ست» و«غيزيس» و «نبت ـ حت».

واحتفل سنويا بعيد بعث «أوزيريس» باعتباره الإله القديم «سيكر» فى أنحاء البلاد باسم مهرجان «حنو». وعند شروق الشمس، كانت مركب «سيكر» المسماة «مركب حنو» توضح على منصة، وتحمل حول المعبد فى موكب مقدس، يمثل رمزيا دوران الشمس. وصنعت مركب «حنو» على هيئة رأس الغزال.

وكان يوم تتويج الفرعون وعيده السنوى، يشهد أيضا احتفالا ضخما. وعندما يبلغ الفرعون ٣٠ عاما من الحكم، كان يتعين عليه أن يشارك فى «حب ـ سد»، وهو مهرجان هائل، يرقص فيه الفرعون، ويقفز، ويجرى ليظهر طاقته المتجددة، وقدرته

الجسدية، واستعادته لشبابه، وقدرته على التحمل، بينما يمثل خصوبة الأرض. ومن بين الطقوس التى تؤدى خلال مهرجان «حب ـ سد»، طقسا يدعى «رفع عامود چد» الذى ينجز بالاستعانة اللازمة بالحبال والكهنة الشباب الأقوياء. وفى الأصل كان الفرعون ملزما بأداء هذا الطقس كل ثلاث سنوات بعد أول «حب ـ سد» على حكمه؛ ويؤدى الطقس أيضا عند تكريم الفرعون الراحل. وكان المفترض أن يرفع الفرعون ـ الذى يمثل دور حورس ـ العامود حتى يتمكن والده «أوزيريس» من العودة للحياة ويصير إله العالم السفلى. وصار هذا الطقس تقليديا فى العديد من المهرجانات. وفى أول الأمر، كان يؤدى فى «چدو» حيث يمثل عامود «چد» عنصر الاستقرار. ويؤكد ها الاحتفال على استمرار استقرار العهد فضلا عن قوة الفرعون والأرض وقدرتهما على التحمل.

ويشاهد تمثيل لمهرجان «حب ـ سد» على لوحة نحتية بارزة فى مقبرة «زوسر» بسقارة، ويحتوى جزء منفصل من فناء هرمه على محراب نموذجى لغرض تمكين الفرعون من مواصلة المشاركة فى مهرجان «حب ـ سد» خلال الحياة الأخرى.

وتمتد مهرجانات تكريم الآلهة نهارا وليلا. وتقدم كميات وفيرة من الأطعمة الغريبة بينما يستمتع الجميع بالغناء والرقص والشرب إلى أقصى حد. وتشير وثائق إلى أنه خلال أحد المهرجانات فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وزعت المعابد ١١ ألفا و٣٤١ رغيفا من الخبز، وثلاثة آلاف و ٨٧٥ جرة من الجعة على حشود الحاضرين. وفى أحد احتفالات «بير ـ باست» تكريما لإلهة الاحتفال، والشرب، والرقص، والفرح، والموسيقى والسكر، حضر ٧٠ ألف شخص من البالغين، من دون احتساب الأطفال. وعقدت الاحتفالات بالإلهة «نيت» فى مركز عبادتها فى «ساو»، بينما الاحتفالات بالشمس مانحة الحياة كانت تجرى فى «لونو».

وحظيت الملاحظات الفلكية بأهمية ضخمة فى تحديد التواريخ المناسبة للمهرجانات الاحتفالية، التى اعتمدت على صعود الأبراج الفلكية والنجوم. ففى المعبد، يحتفظ مراقب للنجوم بتقويم شمسى يمكن من خلاله تحديد دورة النجوم، فضلا عن مراحل الزراعة.

وينظم الكهنة الأعياد الخاصة بالمعبودات الرئيسة مثل «آمون» و «أوزيريس» و«إيزيس»، بينما يعد المواطنون أنفسهم الاحتفالات للآلهة الثانوية مثل «بس». وفى

يوم الاحتفال بالإله «بس» يتوقف العمل حيث تسير الحشود فى صفوف فى الشوارع، ويرتدى الناس أقنعة «بس». ويسير الأطفال وراء صفوف الكبار، يصفقون ويصاحبون الراقصات والمغنيات، وعازفى الرق والمصفقات.

وحدد الكهنة الشهور فى التقويم الشمسى، وأطلقوا على كل منها اسما معينًا يرتبط بالمهرجان أو المعبود الذى يحتفى به فى هذا الشهر. وتعقد هذه الاحتفالات فى أيام القمر الجديد، والبدر، فضلا عن فترات الكسوف الشمسى. وحددت أيام عطلات خاصة خلال كل شهر، وحظى اليوم الأول واليوم الخامس عشر من كل شهر شمسى بالتوقير أيضا.

ولوحظ العديد من المهرجانات المتعلقة بتجدد الفصول. فأقيمت مهرجانات احتفالية باذخة ببداية فصل الربيع وموسم الحصاد وفيضان النيل. وعلى شرف «حعپى»، تجسيد النيل وإلهه، يقام مهرجان كبير بمناسبة الفيضان السنوى للنيل. وخلال هذا الاحتفال، يطوف تمثال «حعپى» عبر بلدات وقرى مصر القديمة. وعندما يبدأ النهر فى الارتفاع، يؤدى التفاؤل إلى احتفال بالموسيقى والرقص. ويأتى الرجال والنساء من جميع أنحاء البلاد للمشاركة. ولاحظ المصريون أن الفيضان السنوى للنيل يظهر عقب فترة قصيرة من ارتفاع «سوبدت» (الشعرى اليمانية). ورمز هذا الحدث المعروف باسم صعود «سوبدت» إلى صعود روح «إيزيس». وحدد ارتفاع النيل وصعود «سوبدت» بداية السنة المصرية الجديدة التى سميت «وبت رنبت». وكان هذا موعد واحد من أضخم وأهم مهرجاناتهم. وعندما يصل النيل إلى أعلى مستوياته، تشهد البلاد مهرجانا آخر. حيث يحتفى بالإلهة «إيزيس» فى يونيو(*) عند الاحتفال بالفيضان السنوى، حيث اعتبرت الدموع التى ذرفتها على «أوزيريس» سببا فى فيضان النهر. كما احتفوا بإيزيس أيضا فى الشتاء، تخليدا لعودتها من «بيبلوس» وانتصارها على ست. وخلال فترة الحصاد، يقام احتفال آخر على شرفها، عندما قدمت إليها أول ثمار الأرض موضوعة على مائدة.

ولوحظ أن الاحتفال بموت وبعث «أوزيريس» يقام فى الاعتدال الخريفى. ويمثل كهنة المعبد قتله وبعثه فى صورة درامية، وتزحف حشود ضخمة إلى «ابدچو» لمتابعة

(*) تقصد المؤلفة ـ بالطبع ـ الشهر من السنة المصرية القديمة المقابل لشهر يونيو ـ المترجمة.

المشهد العظيم. وعند بداية الربيع، ومع القمر الجديد، يقام مهرجان آخر على شرف «أوزيريس»، يدعى «دخول أوزيريس إلى القمر».

وكانوا يحتفلون بذكرى «حورس» فى الانقلاب الشتوى. بينما كان الاحتفال بالإلهة «حتحور» موسما للهو، والشرب، حيث تستهلك الجعة المخضبة باللون الأحمر بكميات كبيرة تخليدا لذكرى ميلادها. ففى الأسطورة، ولدت «حتحور» عندما خلدت الإلهة المدمرة «سخمت» للنوم بعدما شربت كمية كبيرة من الجعة الحمراء التى ظنتها دماء البشر. وعندما استيقظت، كانت «سخمت» قد هدأت، وأصبحت «حتحور» اللطيفة إلهة الحب، والجمال، والاحتفالات.

ويقام مهرجان آخر خلال نهاية موسم العمل الزراعى؛ احتفالا بإعداد الأرض لمحاصيلها القادمة. ونظرا لأن العامة لا يسمح لهم بالاقتراب من الرحاب المقدسة للمعبودات، كانت الحشود تصطف فى الشوارع لمشاهدة مواكب الكهنة والتمتع بها خلال هذه المهرجانات المقدسة. فتطوف تماثيل الآلهة خلال الشوارع، بينما يروح عليها الكهنة بالمراوح، ويحمونها من حرارة الشمس. وكانت مهمة الكاهن إقامة هذه الاحتفالات (التى سميت «الانطلاق المتواصل») على شرف المعبودات المهمة.

وتقع أحداث أخرى فى أوقات مختلفة من العام؛ حيث تنتقل صورة معبود إلى معبد إله آخر. على سبيل المثال «حتحور» و «حورس» تخليدا لزواجهما المقدس. ففى كل عام يبدأ الموكب الذى يحمل تمثال «حتحور» من المركز الرئيسى لعبادتها فى «لونيت» (دندرة) ويسافر لمسافة مائة ميل جنوبا حتى «بهيديتى» (إدفو) حيث يقع معبد حورس. وصورت مشاهد من هذا المهرجان على جدران ساحة المعبد فى «بهيديتى». ويوضع التمثالان جنبا إلى جنب لمدة أسبوعين قبل أن يعاد تمثال «حتحور» إلى «لونيت».

وترتل ترانيم الحمد بينما يتلو «خر-حب» أو الكاهن القارئ اللفائف المقدسة بصوت مرتفع؛ فتخر الحشود ساجدة فى توقير، وتقبل الأرض. وتختار عدة محطات للتوقف فى مواقع محددة على الطريق، يؤدى فيها طقس شعبى، وتقدم القرابين للمعبود بينما يحرق البخور. وفى هذه المحطات غالبا ما يقدم الكهنة والكاهنات خدمات العرافة للجمهور. وعندما يصل التمثال إلى محطته النهائية، يقام احتفال آخر.

وكانت الرقصات المصرية القديمة مستوحاة من السحر والدين، ولم يكن أى مهرجان يكتمل بدونها. حيث تنشد الحشود ويؤدى الراقصون ألعابا بهلوانية مبهرة. ويصفق الكهنة، وتهز الكاهنات «الصلاصل» على إيقاع الأوركسترا التى تعزف على شرف الآلهة. وكان الرقص عنصرا جوهريا فى المهرجانات التى تقام تكريما للآلهة «أوزوريس» و «إيزيس» و «حاب» - عجل أبيس.

وفى عطلات الآلهة، كانت تماثيلهم تخرج من معابدهم المقدسة، وتحمل غالبا على مقصورة محمولة توضع على قارب أو مركب كبير مطلى بالذهب وينقله الكهنة الحليقون، الذين يقودهم كاهن من فئة «سيم». وربما يقوم المركب برحلة قصيرة فى النيل قبل أن يعود إلى «الناوس» الخاص به. ويسافر الناس مسافات بعيدة ليحضروا هذه الاحتفالات العامة المقصود بها تكريم وتسلية الآلهة.

وخلال موسم الحصاد، يقام مهرجان «مينو» (مين) أحد آلهة الخصوبة والخضرة. ويوقر تمثاله فى هذا الوقت حتى يبارك المحاصيل ويمنحها الوفرة. وفى كل عام، خلال موسم الفيضان، يقام عيد «مينو» تكريما للنيل واهب الحياة. ويعتقد أن الفرعون الحاكم والملكة يتممان زواجهما المقدس خلال عيد «مينو» تكريما لإله التجدد والبعث والعلاقة الجنسية.

وفى «أواست» عرف أول مهرجانات العام باسم «عيد أوبت»، ويترقب هذا العيد خلال الشهر الثانى من موسم الفيضان، الذى يتواكب مع صعود «سوبديت». ويخرج تمثال «آمون» من معبده فى الكرنك ويوضع فى مركب مقدس مطلى بالذهب، منحوت من خشب الأرز المستورد من «بيبلوس»، ومزخرف برؤوس الكباش، حيوان آمون المقدس. ويربط المركب بسفن بحرية يقودها طاقم من الرجال. ويسافر المعبد العائم جنوبا حوالى مسافة ميل واحد إلى معبد آخر لآمون فى الأقصر، حيث يبقى هناك لمدة ٣٠ يوما. وعندما يعاد التمثال إلى الكرنك، يقام موكب ومهرجان تماثلان. وفى فترات لاحقة، أضيف مركب آخر لنقل تمثالى زوجة آمون «موت» وطفلهما «خنسو». وخلال عصر الرعامسة، كان مهرجان «أوبت» يستمر ٢٧ يوما.

وكرس مهرجان أخر لعبادة «حاب»، يستمر سبعة أيام. وترجع عبادة «حاب» إلى عصور الأسرات الأولى. وكان يعتقد أن الأطفال الذين يشمون زفير هذا العجل المقدس، أثناء حمله بواسطة موكب الكهنة، سيرزقون نعمة القدرة على التنبؤ.

وأثناء المهرجانات تمارس أنواعا مختلفة من أعمال قراءة الطالع، وتوجه للآلهة الأسئلة التى تكون إجابتها إما «نعم» أو «لا»؛ فإذا مال المركب (فى أيدى الكهنة) نحو السائل، تكون الإجابة «نعم»، أما إذا مال بعيدا تفسر على إنها إجابة من الإله بالنفى. وبعد المهرجان، يعاد التمثال المقدس إلى المعبد، حيث يتولى الكهنة تنظيفه رسميا لإزالة جميع الأتربة والشوائب. وكان الماء المقدس بفضل استخدامه فى هذه العملية يوزع على الفقراء كعلاج يعتقد أنه يحتوى على قدرات الآلهة العلاجية.

***

ـ٢٠ـ

السحر والتعاويذ

كان المصريون القدماء بارعون للغاية فى أساليب السحر، التى أرجعوها إلى «حكا». وصور «حكا» باعتباره نشاطا روحانيا، أو خيطا يربط الإنسان بالآلهة، ووسيلة للتعامل مع المجهول، وغير المفهوم، وما يتجاوز قدرة البشر. ولجأ الناس للسحر كلما كان هناك مرض يرجى الشفاء منه، أو خطر يؤمل إزاحته، أو حب يطلب إثارته.

وساعد «حكا» باعتباره الإله الذى يجسد السحر فى قيادة مركب «رع» الشمسية أثناء عبورها مناطق «دوات» الخطرة. وقد صور على جدران مقبرة «سيتى الأول» فى وادى الملوك. ولم يكتشف أى معبد مخصص لعبادة «حكا»، بيد أن هذا المعبود كان يبجله الكهنة تبجيلا عاليا. وكان نظيره الأنثوى «ويريت ـ حكا» ومعنى اسمها «العظيمة فى السحر».

وكان «شاى» يجسد المصير والقدر، وجسدت «رينينيت» مفهوم حسن الحظ. فنظرة واحدة من «رينينيت» يمكن أن تهب وفرة المحصول والماشية. وكانت نظرة «رينينيت» قادرة أيضا على حماية الأطفال من المخلوقات المؤذية. ويظهر «شاى» و«رينينيت» معا فى مشهد المحاكمة عند أداء طقس وزن القلب.

ويؤدى السحرة أعمال السحر بتلاوة أسماء، أو كلمات أخرى ذات طاقة، بأسلوب ونبرة معينة. ويعتقد أنه عبر «الإلقاء السليم» لهذه الكلمات يمكنها أن تطرد الشر، وتعالج الأحياء، وإعادة الحياة إلى المتوفى. ويكون السحر فعالا على أفضل نحو عندما ينطق بصوت مرتفع؛ غير أنه يمكن أيضا أن ينقش على ورق البردى أو الحجر. وغالبا

ما كانت التعاويذ تسجل على لفائف المومياوات، وعلى الوثائق الجنائزية، وجدران المقابر، والتوابيت، وأخيانا توفر الحماية ضد الجوع والعطش الأبديين.

ويحتوى كتاب الموتى على ما يربو عن ٢٠٠ تعويذة سحرية، يعتقد أنها تعود إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد. والعديد من الأمثلة على سلاسة الإبحار على ظهر المركب السماوى، ونجاح المرور عبر مملكة «دوات» والمحاكمة فى قاعة الدينونة. وهناك تعويذة مهمة أخرى من شأنها أن تساعد المرء على تذكر اسمه، حتى تتعرف عليه الآلهة و «كا». وكان الاسم جزءا من وجود المرء مثله مثل «كا» و «با».

ومثل الرقم «سبعة» دائما رقما ملغزا، سحريا، يجسد المعرفة المكثفة، والتنوير، والروحانية. وفى مصر، يبرز الرقم سبعة دائما فيما يتعلق بالأساطير، والمعبودات، والفراعنة، والكيانات الروحية، والفلك، كما توضع بعض الأمثلة:

* المعبودات السبعة الرئيسية فى مصر القديمة هى: «رع» و «حورس» و «ست» و«أوزيريس» و«أنوبيس» و «سوكار» و «سوبك».

* «سيشات» السيدة الكاتبة، ترتدى تاجا من سبع بتلات أو نجوم على رأسها.

* الكيانات الروحية أو النجمية السبعة هى: «خات»، و «كا»، و «با» و «خو» و«ساهو» و «آخ» و «خايبت».

* الكواكب السبعة التى تعبد هى: الشمس، والقمر، وعطارد، والزهرة، والمريخ، والمشترى، وزحل.

* كان المصريون أول الكيميائيين. وفى عملياتهم التحويلية اشتغلوا بالمعادن السبعة: الذهب، والفضة، والزئبق، والنحاس، والحديد، والزنك، والرصاص، ويتحكم فى كل منها الكواكب السبع على التوالى.

* فى كتاب الموتى، إشارة إلى «آنى» الكاتب الذى حول نفسه إلى صقر ذهبى طوله سبعة أذرع.

وتعتمد العديد من التعاويذ على الرقم «سبعة»؛ ففى بردية «لندن ـ ليدن» تعاويذ موصوفة للعلاج، وإثارة مشاعر الحب، وطرد الشرور، يتعين تلاوتها سبع مرات. وغالبا ما كان يتعين تلاوة هذه الكلمات تحت المجموعة النجمية «الدب الأكبر» التى تتألف من سبعة نجوم.

وغالبا ما يشار إلى الآلهة فى «أشكالها» السبعة، مثل «خنمو» (المعبود الذى أنهى سنوات المجاعة السبع)، و«سخمت» التى احتاجت إلى سبعة آلاف آنية من الجعة الممزوجة بالأكسيد الحديد الأحمر حتى تهدئ من حنقها على البشر. وكان يعتقد أن أنواع الطاعون، والأمراض، وسوء الحظ، نجمت جميعها من «سهام سخمت السبعة». ويقال أن «رع» خالقها كان يمتلك سبع أرواح. ونبعت «الحكيمات السبع» (اللاتى كن أخوات «مح ـ أورت» من عين «رع». وتقول الأسطورة، أنهن حولن أنفسهن إلى سبعة صقور، طارت فى السموات لتنضم إلى «تحوت» وتساعده فى تخطيط الكون.

أما السبع «حتحورات» فهن أشكال سبعة للإلهة «حتحور». وهن يصورن على هيئة فتيات يعزفن على الرق ويرتدين أغطية رأس عبارة عن قرص وسط قرنين (فى إشارة إلى «حتحور» الإلهة برأس بقرة). واعتبرت الحتحورات السبع شكلا إيجابيا من أشكال الطاقة، تتنبأ بمستقبل المواليد الجدد ـ فبجوار فراش الوليد، تعلن الحتحورات السبع مصيره؛ فهن يعرفن قدر كل مصرى. وكان يعتقد أنهن يبدلن الأطفال الملكيين المولودين تحت نجوم نحس بأولئك المولودين تحت نجوم السعد ـ بهدف حماية الملكية والبلاد.

وعبدت «الشقيقات السبع» ومثلن بنجوم «الثريا»(*) السبع. وفى «بروج إسنا» الفلكية؛ أدرج زوج من «واچت» فى شكل بيضاوى مع سبعة نجوم يعتقد أنها تدل على «الثريا». ومنذ عصر الأسرة الخامسة، استخدمت الزيوت السبعة المقدسة فى عملية التحنيط، وعثر على جرار من المرمر فى مقبرة «حتيفيرس»، وهى مرقمة من الواحد إلى السبعة، ونقشت محتوياتها عليها بشكل دقيق.

وأسماء العقارب السبع التى صاحبت وحمت «إيزيس» و «حيثرو ـ سا أوست» : «تيفين»، و«بيفين»، و«ميستيت»، و «بيتيت»، و«ثيت»، و «ماعتيت». وسارت اثنتان خلفها، وواحدة على كل جانب وتقدمت ثلاثة الطريق، ليزلن مخاطر الطريق أمام الأم وطفلها، وكانت «إيزيس» باعتبارها إلهة السحر، تعرف أسماءهن، ومن ثم كانت قادرة على إصابتهن بالعجز، إذا رغبت.

(*) ست نجوم ساطعة وواحدة لا ترى بالعين المجردة فى كوكبة الثور ـ المترجمة.

وكانت الحروف المتحركة السبعة ترتل فى المعبد وسط سرية بالغة، حيث اعتبرت السبعة أصوات الأولية التى نشأت عنها بقية الأصوات. وعرفت أيضا باسم «الأرواح» أو الأنفاس، كما اعتبرت المكون المقدس للكلمات.

وكان الاحتفال بمولد العجل «أبيس» مهرجانا فخما يحتفل به لمدة سبعة أيام. ووفقا لما ذكر «بلوتارخ»، يقام الاحتفال قبيل الانقلاب الشتوى، عندما تكون الشمس فى أضعف حالاتها، ويجرى الطقس بدفع بقرة مقدسة للدوران فى موكب حول المعبد سبع مرات. وعرف هذا الطقس باسم «البحث عن أوزيريس».

وفى «كتاب الموتى»، يبرز هذا الرقم باستمرار: فقد كلف «أنوبيس» سبع أرواح أو سبع أرواح ساطعة بالإشراف على جسد «أوزيريس»؛ وتضمنت هذه الآلهة السبعة أبناء حورس الأربع. وهناك إشارات للسبعة المبجلين المقيمين فى العالم السفلى. وورد ذكر ثعبان ذو سبعة رؤوس فى النصوص الجنائزية، فضلا عن سبعة آلهة فى أرض «دوات» يشرفون على ذبح أولئك الذين يعاقبون بسبب ما قاموا به من مساوئ أثناء الحياة. وهناك سبعة معبودات أخرى غالبا ما تقابل خلال رحلة المركب فى أنحاء«دوات»، وسبعة آلهة جالسون يقطرون المركب الشمس فى مرحلة أخرى من الرحلة. وتوجد سبع قاعات أو حجرات فى إحدى مناطق «دوات» على كل منها حاجب، ومراقب، ومناد. ويتعين على المتوفى أثناء مروره عبر هذه الحجرات خلال ساعات الليل الاثنتى عشرة، أن يكون قادرا على ذكر أسماء الحجاب السبعة، والمراقبين السبعة، والمنادين السبعة، حتى يستطيع أن يقابل «أوزيريس» فى العالم السفلى.

وفى علم الفلك المقصور على الخاصة، ينتمى حكم مصر إلى البرج السابع من أبراج الفلك؛ الميزان. والخصائص المميزة لبرج الميزان هى الجمال والذوق الفنى، وهما كلمتان مرادفتان لمصر. وقوس الميزان(*) هو قوس «ماعت»، والرمز الفلكى للميزان يشابه إلى حد دقيق الكلمة الهيروغليفية الدالة على «آخت»، الشمس الساطعة، رمز اعتقاد المصريين القدماء فى البعث، أساس ديانتهم.

قصص الرقم سبعة

يظهر الرقم سبعة فى قصة مسجلة على بردية «وستكار»، وهى قصة تتعلق بالملك

(*) الذى تحمل عليه الكفتان ـ المترجمة.

«خوفو»، بانى الهرم الأكبر، وتخص حدثا وقع خلال عصر الأسرة الثالثة. وتبدأ القصة بزوجة خائنة لمسئول كبير كشفها خادم زوجها. وعندما أبلغ زوجها ـ البارع فى فنون السحر ـ بأمر سلوكها الشائن، طلب خزانته الثمينة المصنوعة من الأبنوس والمعدن، وأخرج منها شمعا، صنع منه تمساحا طوله سبعة أصابع. ثم تلا كلمات السحر المطلوبة، بنبرة الصوت والترتيب المناسبين، ووضع لعنة على التمساح. وأعطى المسئول الكبير خادمه المخلص التمساح ليلقيه فى المياه حيث اعتاد عشيق زوجته أن يستحم. ثم جاء اليوم الذى أمضى فيه الخائنان بعض الوقت معا. وعندما نزل العشيق إلى المياه ليستحم، ألقى الخادم إلى المياه بالتمساح الشمعى، وسرعان ما دبت فيه الروح، ونما حتى أصبح طوله سبعة أذرع، ليلتهم العشيق. وصدر أمر ملكى بإعدام الزوجة الخائنة، ونثر رمادها فى النيل. ويبدو أن هذه القصة حكاها «خفرع» لأبيه «خوفو» حتى يسليه، ولعله لم يكن يقصد من وراءها أية تلميحات غير سارة.

وهناك قصة أخرى عن السحر، من بردية «وستكار»، عن حكيم اسمه «تيتا»، بلغ ١١٠ سنوات من العمر. ففى أحد الأيام تناقش «حيرو تاتيف»، وهو ابن آخر للملك «خوفو» من الأسرة الرابعة، مع أبيه حول موضوع السحر والسحرة. وأثنى «حيرو تاتيف» على أعمال «تيتا» باعتباره قادرا على إعادة الرأس إلى الجسد بعد قطعها.

وبلغ الفضول مداه مع «خوفو» حتى أنه أمر بإعداد القارب الملكى، وكلف «حيرو تاتيف» بإحضار «تيتا» إليه. وعلى الفور، وافق «تيتا» على زيارة «خوفو»، وأضاف أن هذا الفرعون سيكون من شأنه أن يحقق نجاحا عظيما. وطلب «تيتا» قاربا لنقل كتبه، وآخر لنقل أسرته، وهكذا سافر عبر النيل، وأحضر أمام الفرعون، الذى سأله عما إذا كان يستطيع أن يؤدى العمل الخارق من أعمال السحر الذى اقترحه «حيرو تاتيف». وأكد «تيتا» أنه يستطيع، فأمر الفرعون رجاله أن يحضروا أسيرا حتى يبرهن «تيتا» على سحره من خلاله. فتوسل «تيتا» للفرعون أن ينقذ حياة الرجل ويحضر حيوانا بدلا منه. فأحضروا إوزة أولاً، وما أن قطعت رأسها، حتى وضع الرأس فى جانب والجسد فى جانب آخر. وقام «تيتا» وتلا كلمات سحرية، وإذا بالجسد مقطوع الرأس يقترب من الجزء المفقود منه ويلتحم به. وأدى «تيتا» بنجاح نفس المعجزة مع طائر، ثم مع ثور.

شعور عميق

فى مؤامرة الحريم، استخدم السحر لإيذاء «رعمسيس الثالث». وبطريقة سرية، حصل «هوى» المشرف على الماشية الملكية، على نسخة من نص سحرى، من المكتبة الملكية. وتعلم من هذا المرجع كيفية صنع تماثيل شمعية، وإعداد تميمة لصب تعويذة مهلكة على الفرعون. وبمساعدة مسئول ملكى، تم تهريب الأدوات المطلوبة إلى القصر. واستخدمت التعاويذ والعناصر السحرية لوضع نهاية لحكم وحياة الفرعون، وتنصيب حاكم آخر على العرش.

وكان آخر الفراعنة المصريين الملك «نختنبو الثانى» الذى حكم خلال عام ٣٦٠ قبل الميلاد، وهو ساحر وفلكى مشهور فى عصره، لبراعته الفائقة فى فك طلاسم، وتفسير الخرائط الفلكية. ويقال أنه فى إحدى المرات، عندما تعرضت مصر لغزو، ذهب «نختنبو الثانى» إلى معمل السحر الخاص به، وصنع تماثيل شمعية للعدو. ثم وضعها فى إناء به ماء، وتلا الكلمات المطلوبة ذات التأثير، محدثا رياحا قوية لإغراق النموذج المصغر لسفينة العدو بما فيها من رجال. وبينما تغرق تماثيل الرجال، كانت نتائج مماثلة تحدث فى الحياة الواقعية.

ولسوء الحظ، فشلت آخر محاولاته من هذا النوع من السحر، حيث عملت التعويذة ضده وضد جنود مصر. ففسر هذه الهزيمة على أن نهاية مصر تقترب، وأنه سيكون آخر فرعون مصرى يحكم البلاد. ويقال أن «نختنبو الثانى» فر إلى مقدونيا، متخفيا فى هيئة رجل من العامة، وأصبح عرّافا ومعالجا.

أول كتاب أسطورى فى التعاويذ

تحكى قصة عن السحر، كيف كان كاتب فى البلاط اسمه «ستنا»، والد «سا-أوزير» وابن «رعمسيس الثانى»، ضليعا فى أسرار أعمال السحر. وكيف تطلع بشدة إلى الحصول على كتاب يحوى جميع المعارف السحرية، كتبه «تحوت» الساحر العظيم. وهذا الكتاب مدفون فى «منف» مع أحد اسلاف «ستنا»، اسمه «نفر-كا-پتاح» الذى كان عالما عظيما وساحرا بارعا. وشرع «ستنا» وشقيقه فى البحث عن الكتاب، الذى عثرا عليه فى مقبرة أثر بحث دام ثلاثة أيام.

وكانت يدا «نفر ـ كا ـ پتاح» قابضتين على الكتاب، وإلى جانبه كل من «كا» المنتسبة لزوجته المحبوبة «أحورا»، و«كا» وابنهما «ميرحو» المدفونين فى «قبطو» «كوبتوس»، حيث توفيا. وشرع «ستنا» فى تخليص الكتاب من قبضة الرجل الميت، عندما تكلمت فجأة «كا» «أحورا»، وتوسلت إليه ألا يفعل. وشرحت له أن الكتاب لم يجلب سوى الحزن للأسرة بكاملها، وحذرت «ستنا» من أن «نفر ـ كا ـ پتاح» كان مأخوذا أيضا بهاجس الحصول على المعرفة الموجودة فى «كتاب تحوت». وأن هذا الهاجس هو الذى جلب الموت للأسرة.

وكان «نفر ـ كا ـ پتاح» قد سمع من كاهن عجوز عن محتويات الكتاب التى لا تقدر بثمن. وعلم أن الكتاب يوجد فى قاع النهر، تحميه ثعابين عديدة، وكائنات كريهة أخرى. ووجد أن عليه أن يعثر على الكتاب داخل خزانة حديدية تحوى صندوقا حديديا، يحوى صندوقا برونزيا، يضم صندوقا خشبيا، يحوى صندوقا من الأبنوس والعاج، يضم صندوقا من الفضة بداخله صندوقا ذهبيا. ويوجد «كتاب تحوت» فى الصندوق الذهبى.

وتقول الأسطورة أن «نفر ـ كا ـ پتاح» ذبح الثعبان الملفوف حول الصندوق مرتين، لكنه لم يمت. وفى المرة الثالثة، فصل الثعبان بإلقاء الرمال بين جزأى الجسد، حتى أنهما لم يتمكنا من الالتحام والعودة للحياة. وبهذا الانتصار، أحضر «نفر ـ كا ـ پتاح» الحاوية إلى الشاطئ، وفتح جميع الصناديق واحدًا واحدًا. وأخيرا أمسك بيديه المرتعشتين كتاب السحر. ثم نسخ التعاويذ على ورق البردى، وعطره بالبخور، وأذابه فى الماء وشرب حكمة «تحوت»، وإلى جواره زوجته. وغضب «تحوت» عندما اكتشف أنهم أخذوا ما لم يكن لهم. وقرر ألا تعود الأسرة إلى «منف»؛ وبينما اتخذ الثلاثة طريقهم للعودة، غرقوا جميعا ـ الولد أولا، ثم الأم فى «قبطو». وأخيرا، غرق «نفر ـ كا ـ پتاح» (وكتاب «تحوت» بين يديه) بينما كان يقترب من «منف».

ولم تردع قصة مأساته «ستنا» عن رغبته، بل أنه أصر على الحصول على كتاب المعرفة المقدس. ثم تحدثت روح «نفر ـ كا ـ پتاح» ودعت «ستنا» إلى قبول التحدى فى مباراة «سينيت»؛ على أن يحتفظ الفائز بالكتاب. وفاز «ستنا» بالمباراة، ونال الجائزة التى سعى إليها طويلا. وبعد أيام قليلة، قابل «ستنا» امرأة جميلة مثيرة، وفقد عقله تماما. فقد سيطرت روح «نفر ـ كا ـ پتاح» على هذه المرأة واسمها «تابوبوا»؛ فطلبت من

«ستنا» أن يترك زوجته ويضحى بابنه من أجلها، وأعماه جمالها وحبه لها حتى أنه امتثل لما طلبته. وبعد أن هجر زوجته وقتل ابنه، ذهب ليعانق «تابوبوا»، التى تحولت فى تلك اللحظة إلى هيكل عظمى.

واستيقظ «ستنا»، ليجد نفسه راقدا فى وسط الشارع، ويدرك أن ذلك كله كان كابوسا مرعبا. وذهب إلى أسرته، وأعلن حبه العميق لهم. وكان «ستنا» رجلا حكيما بما يكفى ليرى أن هذا الحلم نذير سوء الحظ، فأعاد الكتاب إلى «نفر ـ كا پتاح». ولامتنانه بسبب حصوله على فرصة ثانية مع أسرته، أعاد «ستنا» جسدى زوجة «نفر ـ كا ـ پتاح» وابنه من «قبطو» إلى مقبرته فى «منف». ورقدت الأسرة التى التأم شملها أخيرا، فى راحة معا، . ولا شك أنهم يواصلون حراسة كتاب «تحوت» الآن.

* * *

ـ ٢١ ـ

الأحلام والتنبؤ

فى مصر القديمة، غالبا ما كان الوسطاء الروحيون يستشارون فى شئون الحياة اليومية، حيث كان يعتقد أن الحقيقة تكمن فى نبوءاتهم. ويحتفظ بتماثيل خاصة لهذا الغرض، يحملها كهنة المعبد إلى العامة فى مقاصير محمولة خلال المهرجانات والاحتفالات الدينية. وغالبا ما يستشار الوسطاء كتابة، فيمكن كتابة السؤال أو الرغبة على ورقة بردى، وتوضع فى فم تمثال المعبود. وبمرور الوقت، أصبح الكهنة صوت الوسطاء، وأعدت حجرات خاصة داخل المعبد لتمكنهم من الاتصال بأصحاب الحاجات، بينما يظلون مختبئين. ووجدت نصوص من الكهنة تتنبأ بمصير أولئك المولودين فى تواريخ معينة على التقويم، ويمكن لكل الراغبين استشارة هذا الوسيط.

ولم تقتصر خدمات الوسطاء على العامة، ولكنها متاحة للأسرة الملكية أيضا. ويستشير الفراعنة الوسطاء عند الحاجة لموافقة أو نصيحة مقدسة فى قرار أو حدث أو موقف مهم.

ويرجع «تقويم القاهرة» المسجل على ورق البردى إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة. وأشارت هذه الوثيقة إلى تواريخ خاصة اعتبرت تحمل حظا حسنا أو سيئا. وقسم كل يوم إلى ثلاثة أقسام، وحدد لكل قسم ما يحمله من حظ حسن أو نحس. واعتبر ما يزيد قليلا عن ٥٠٪ من أيام السنة حسنة الحظ بوجه عام، واعتبرت عدة أيام قليلة محايدة، بينما اعتبرت الأيام الباقية غير مواتية للقيام بأى عمل؛ كالولادة على سبيل المثال. ويمكن استشارة «تقويم القاهرة» غالبا لتحديد النتيجة المحتملة لمشروع أو مسألة. ولم يكن استخدامه مقصورا على فرد بعينه، وإنما يمكن تطبيقه على أى شخص يطلب استشارة بشأن تاريخ معين.

واعتمد التأثير الحسن أو السيئ لليوم على ارتباطات أسطورية أو أحداث مهمة تتعلق باليوم. وكان يعتقد أن آثار الأحداث الكبيرة، سواء إيجابية أو سلبية تبقى وتؤثر على جميع الأمور التى تجرى فى نفس اليوم من كل عام. واعتبر اليوم الأول من الشهر الأول من أول فصول العام «آخت»، يوما مبشرا، ليس فقط لأنه بداية العام الجديد فى مصر القديمة، وبداية ارتفاع النيل، ولكن لكونه العيد السنوى لميلاد «رع». واعتبر اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من موسم «بيريت» يوم نحس، لأنه الموعد السنوى لبكاء «إيزيس» و «نبت ـ حت» على ذكرى «أوزيريس» فى «ديدچو» أو «بير أوزير». ولما كانت «نبت ـ حت» تجسد القوى الخفية، اعتبرت «سيدة الأحلام» وأختها «إيزيس» «سيدة السحر».

واعتبرت الذكرى السنوية للمعركة بين «حورس» و «ست» فى اليوم الخامس عشر من أول شهر من «آخت»، يوما غير ميمون أيضا، بينما اليوم السابع والعشرين من الشهر الثالث من موسم «آخت»، هو يوم وقف القتال بين «حورس» و«ست»، ومن ثم اعتبر يوما مواتيا. ونشأت نذر الشر لليوم الخامس عشر من مارس (الذى مازال المؤمنين بالخرافات يعتبرونه يوم نحس) فى العام ٤٤ قبل الميلاد، عندما اغتيل يوليوس قيصر ـ رغم تحذيرات وردت فى حلم لزوجته، ومن فلكى:

وغالبا ما كان «حاب» يستفتى فى أمور الغيب خلال المهرجانات المكرسة له. ويوجه السؤال إليه بعد وضع قربان على يمين تمثاله. وما أن يقدم السؤال، حتى يغطى السائل أذنيه ويترك المعبد. وتفسر أولى الكلمات التى يسمعها على أنها كلمة «حاب» المقدسة.

وهناك طريقة أخرى للتنبؤ عبر قيادة «حاب» فى شخص العجل المقدس إلى قاعة مزدحمة بالمتعبدين، حيث يطلق سراحه ويترك حرا للاختيار بين بابين؛ أحدهما يمثل إجابة سلبية، والأخر إجابة إيجابية. ويعتبر الباب الذى يختاره «حاب» كلمته المقدسة.

وفى طقس آخر للتنبؤ يشمل «حاب» أيضا، يطلب من السائل أن يقدم للعجل بعض الطعام بيده. فإذا قبل «حاب» الطعام، يعتبر ذلك فألا حسنا، أما إذا رفض، فيفسر رفضه على أنه نذير شؤم. ومن الإنصاف أن نتساءل عما إذا كان الحيوان المقدس (الذى يرعاه الكهنة جيدا) قد تمت تغذيته قبل أن يقاد إلى الناس؟ أم أنه يهمل وجبة الإفطار فى هذه المناسبات.

عمل العديد من المعابد كمراكز لمعرفة الطالع، قدمت خدمة التنبؤات، وبوجه خاص تفسير الأحلام. وكان يعتقد أن الأمراض يمكن علاجها باستخدام أكاسير وجرعات تنتقل أثناء النوم عبر الآلهة وما وراء العالم. واعتبرت الأحلام رسائل سماوية لا يمكن أن يفسرها إلا كاهن أكبر مقابل أجر بالطبع.

وتكتب الأحلام السيئة بحبر أحمر اللون، وهو اللون الذى يمثل «ست» والشر. بينما تدون الأحلام الجيدة باللون الأسود. ويحتوى «كتاب الأحلام» على طقس خاص يتعين أداؤه عند الاستيقاظ من كابوس، حتى يبعد جميع الأرواح الشريرة ويطرد تأثيرها الشرير. ويوجه الحالم إلى تناول مزيج من الخبز الطازج، والمر، وأعشاب خضراء، وجعة، أو دهن وجهه بهذا المزيج عند الاستيقاظ؛ كما يتعين تلاوة تعويذة معينة، ومن ثم تختفى الروح الشريرة التى سببت الحلم المزعج.

ولطرد الكوابيس المزعجة، صنع المصريون القدماء ثعابين من الطين، ووضعوها عند أبواب بيوتهم (اعتبرت الثعابين مخلوقات ليلية شريرة، ومن ثم فهى تجلب الأحلام السيئة). واعتبرت هذه العادة فعالة فى طرد ثعابين الصحراء الحقيقية المهلكة. وغالبا ما ينقش على وسائد الرأس صورة «بس» الإله القزم، مانع الأحلام المزعجة. وعثر على إحدى هذه الوسائد بين أمتعة «كين حرخوبشف» الجنائزية. كما نقشت صور الأسود، أعداء الثعابين، على الأسرة لحماية الناس أثناء النوم.

وحظى فن تفسير الأحلام باحترام بالغ، وكان الخبراء فى هذا الفن محل إقبال شديد، ويتلقون مكافآت سخية. وبحلول العصر البطلمى، صار تفسير الأحلام مهنة مربحة. وربما يستأجر المتخصصون ليحلموا لصالح زبائنهم، بالإضافة إلى تفسير الأحلام التى تراودهم.

ومن بين من مارسوا هذه المهنة كاهن اسمه «حور»، عاش خلال عهد «بطليموس الرابع» فى الفترة من ١٨٠ إلى ١٤٥ قبل الميلاد. وكان يعيش على منح المشورة للناس عبر الاستعانة بالإله «تحوت» إله الحكمة، والفكر، واللغة. وخلف «حور» وراءه ما يزيد عن ٦٠ نصا كتبت على «أوستراكا»، أوضحت الكثير عن هذا الرجل الروحانى. وشاهد «حور» حلمين فى ليلة واحدة سببا له هزة شديدة، وغيرا مجرى حياته. فقد

حلم أن روحا حذرته من أن «تحوت» غضب لأنه تجاهل إطعام ٦٠ ألف طائر أبو منجل «إيبيس». وفى حلم آخر، عاد «حور» إلى بلدته لينكره المواطنون المحليون ويضطهدونه. وظهر ملاحظ عمال وقال «أنا لست ملاحظ عمال، أنا إله. لا تعبد غيرى» وفور استيقاظه، انتقل «حور» من بيته فى الدلتا إلى سقارة حيث اصبح خادما مخلصا لعبادة الإله إيبيس «تحوت».

وعندما يبحث شخص عن إجابة لأمر مقلق أو شفاء من علة، يوظف كاهن لينام داخل «معبد نوم» أو مركز للعرافة، ويمكن للسائل أن يدفع أجرا ليمضى ليلة داخل «معبد نوم» بنفسه حتى يتلقى عونا إلهيا فى أمور الصحة. وخضعت كتب تفسير الأحلام لحراسة مشددة، ولم يكن يرجع إليها إلا الكهنة، بينما يعتمد الآخرون على أحاسيسهم الداخلية فى تفسير الأحلام.

ولم يبق من هذه الكتب سوى واحد فقط كتب خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة، وهو يخص كاتب اسمه «كين خر خوبشف» شغف بجمع نصوص من السحر، والشعر، والطب، وتفسير الأحلام. واحتوى هذا الكتيب على أكثر من مائتين من تفسيرات الأحلام التى فسرت على أنها كلام الآلهة. وهناك عدة أمثلة تتنبأ بطول العمر - إذا رأى شخص نفسه ميتا فى الحلم! كما يسعد بحسن الحظ الشخص الذى حلم بأنه يأكل لحم تمساح. أما أن يرى شخص نفسه إلى جوار قزم فى الحلم، فهذا معناه أن نصف عمره قد مضى. والحلم بشرب الجعة دافئة (حتى فى أيام ما قبل ظهور الثلاجات) يفسر على أن الحالم يعانى متاعب. واعتمد الكثير من هذه التفسيرات جزئيا على ارتباطات حرفية أو تلاعب لفظى، الأمر الذى كان المصريون القدماء يستمتعون به كثيرا؛ والأرجح أن التجارب الفعلية جمعت واستخدمت كمراجع للأحداث اللاحقة فى تفسير الأحلام.

وورد فى العهد القديم (من الكتاب المقدس) واحدة من أشهر القصص التى ترجع إلى الحقبة المصرية القديمة؛ حيث جلب «يوسف» العبرانى إلى مصر كعبد، ثم رقى إلى خادم قائد الحرس. وبعد أن رفض إغراءات خليلة القائد؛ تسببت فى إلقائه بالسجن نكاية فيه. ولكن بعد فترة قصيرة، اكتسب «يوسف» احترام زملائه بفضل موهبته فى تفسير الأحلام. وسرعان ما انتشرت أنباء مهاراته حتى بلغت أسماع الفرعون، الذى كان يعانى من حلم مزعج رأى فيه سبع بقرات عجاف يأكلن سبع سمينات، وسبع

كيزان من ذرة ضعيفة تأكل سبعا ممتلئة. وفسر «يوسف» الحلم بأنه يعنى أن سبع سنوات من الرخاء سيعقبها سبعة أعوام من المجاعة. واقتنع الملك بهذه الإجابة غير أنه شعر بالانزعاج. وكلف «يوسف» بمهمة ادخار خمس محصول الحبوب فى كل سنة من سنوات الرخاء حتى يستخدم فى سنوات المجاعة المتوقعة. وحلت المجاعة على جميع البلاد ماعدا مصر، حيث كان مخزون الذرة والخبز كافيا لسد النقص.

وهناك قصة أخرى تتعلق بالأحلام، حول فرعون حكم خلال عصر الدولة الحديثة، وكان الفرعون ـ الذى يعتقد أنه «سيتى الأول» ـ معروفا بقلة احترامه للجيش؛ حتى أنه ألغى الامتيازات التى كان فرعونا آخر منحها للجنود. وعندما كان الآشوريون يعتزمون غزو مصر، رفض جنود الجيش المصرى التعاون مع الفرعون فى الدفاع عن البلاد. ولجأ الفرعون المحبط إلى استشارة المعبد. وأخذه النوم بينما كان يصلى للآلهة وظهر له فى الحلم أحد الآلهة الذى أكد له انتصار مصر على الآشوريين. فاستعاد الملك شجاعته وثقته مجددا، واستدعى جيشه مرة أخرى، وفى هذه المرة استجابوا له. ولم يهب الجنود فقط لمواجهة الأمر وإنما الصناع والتجار والعامة، تقدموا جميعا للدفاع عن مصر.

وعشية الهجوم، أقام الأشوريون فى الحقول المجاورة، وخلال الليل، قرضت الفئران والجرذان مخزونهم من الأسلحة والدروع، وتركت الأشوريين من دون حماية. فمات العديد منهم وفر الباقون بلا سلاح.

وتحكى قصة أخرى تتعلق بالأحلام، عن «مرنبتاح» ابن «رعمسيس الثانى» وخليفته. وتقول الأسطورة أن «مرنبتاح» تعرض خلال العام الخامس من عهده لأزمة عسكرية: حيث كان يتوقع غزوا من الليبيين وشعوب البحر. واستشار «مرنبتاح» وسيط «آمون»، الذى تحدث إليه عبر «بتاح». وأبلغه أن مصر لن تهزم. ونقشت القصة على لوح تذكارى فى الكرنك يؤكد أن «مرنبتاح» ذبح آلاف الرجال، وجلب معه العديد من الأسرى والغنائم.

ولنمض قدما مع قصة إله القمر «خنسو»، التى ذكرناها فى الفصل الخاص بالمعبودات. فقد شفى «خنسو» «بينت ـ ريشت» أخت زوجة «رعمسيس الثانى»؛ لكن القوم خشوا أن الروح الشريرة التى سببت مرضها ربما تعود إلى بلاد «بختن»، ومن ثم

احتفظوا بتمثال «خنسو» ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة أيام. فلماذا أعيد إلى «أواست»؟. فى إحدى الليالى رأى أمير «بختن» حلما مزعجا. فقد رأى «خنسو» متخذا هيئة صقر ذهبى، وهو يطير من محرابه فى «بختن» إلى موطنه فى مصر. وعقب استيقاظ الأمير، استشار كاهنا عرافا. فأبلغه أن «خنسو» رحل بالفعل من «بختن». وأدرك الأمير أن أيامهم مع «خنسو» بلغت نهايتها، وفسر الحلم على أنه تحذير. وفورا حملت المركب الملكية الفخمة تمثال «خنسو» وهدايا ثمينة لمعبده، وأعيد فى سلام إلى مدينة «أواست».

وكان يعتقد أن «نختنبو الثانى» عرف كيف يجعل الآخرين يحلمون أحلاما معينة. ويقال أنه أرسل حلما إلى «أوليمبيا» ملكة مقدونيا، عبر تمثال شمعى. حيث أعد «نختنبو الثانى» دواء باستخدام أعشاب مسببة للأحلام، وصنع تمثالا شمعيا ونقش عليه اسم «أوليمبيا». ودهن التمثال بالخلطة العشبية واستحضر حلما معينا لها. وفى تلك الليلة حلمت «أوليمبيا» أن «آمون» جاء إلى فراشها وأبلغها أنها ستلد طفلا عظيما. وبعد تسعة شهور أنجبت ابنا، هو الإسكندر الأكبر.

وخلال العصر البطلمى، توحد «حاب» مع «أوزيريس»، وعبد باعتباره المعبود المجمع «أوزير ـ حاب» (الذى سماه الإغريق «سيرابيس»). وهكذا توحدت الروحان وصار «أوزير ـ حاب» واحدا من أهم معبودات الحقبة اليونانية / المصرية، مما كان سببا لإشعال حرب. فقد حلم «بطليموس الأول سوتير»، مؤسس الأسرة البطلمية (المعروف أيضا باسم المخلص)، أن تمثالا ضخما ظهر أمامه، وهو تمثال لم يره من قبل على الإطلاق، وأمره بأن ينزعه من المكان الذى يقف فيه، ويعيد تنصيبه فى الإسكندرية عاصمة البطالمة. ودون أن يعرف إلى من ينتمى هذا التمثال، ولا أين يقع، قص الحلم على صديق. وكشف الصديق له عن أنه شاهد لتوه مثل هذا التمثال فى «سينبوى» (شمال تركيا). وبعد ثلاث سنوات والكثير من مقاومة المحليين (ومن الممكن للمرء أن يتخيل هذا)، أخذ التمثال إلى مصر. واعتقد المصريون القدماء أن هذا التمثال يجسد جوهر «أوزير ـ حاب». وأنشأ «بطليموس الأول» مركز عبادة «سيرابيس» فى الإسكندرية، حيث أقيم معبدا ضخما لحماية التمثال، باعتباره بيت «أوزير ـ حاب».

***